جاوان القبيلة الكردية المنسية

ومشاهير الجاوانيين *

جاوان قبيلة كردية قديمة من أشهر القبائل في التأريخ ، وأعظمها مقاماً ، وأبعدها صيتاً ، وأجلّها فعلاً في الحروب والسياسة بالعراق ، ومن أحسن القبائل أثراً في الأدب العربي ، ولا سيما الشعر لإقبالها عليه والدعوة اليه . ولكنها لم تحظ من الباحثين في تأريخ الأكراد بدراسة ولا بتحقيق ، ولم تفز من المؤرخين المعاصرين لنا ولا الذين عاشوا قبلهم بعناية ولا برعاية ، حتى لقد أصبحت منسيّة ، أو مذهولاً عنها في التواريخ العراقية ، فضلاً عن غيرها من التواريخ ، وهذا هو الذي يعنيني على أن أصفها بالمنسيّة ، ولم أقل « المجهولة » ، فقد جرت العادة أن يوصف الخامل الرذول بالمجهول .

قامت قبيلة جاوان بأدوار خطيرة في التأريخ العراقي الإسلاميّ ، فيها من العظمة والفخامة والكرامة ما يؤهلها بعضه لأن تذكر وتدرس في تأريخ العراق ، ولا سيما التأريخ الكردي منه ، لأنّ إهمالها يعدُّ نقصاناً وحرماناً وكفراناً : نقصاناً في حقيقة التأريخ ، وحرماناً في العلم الذي غايته الكشف عن الحقائق ، وكفراناً لفضلها وآثارها التي يجب أن يُعترف لها بها ، وتُذكر بها بالإجلال والتعظيم ، فلم يذكرها شرف خان البتليسي في شرفنامته مع أنّها تأريخ الأكراد ، ولا ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار .

وذكرها المرحوم الأستاذ محمد أمين زكي في كتابه « مختصر تأريخ الكرد وكردستان » مرّة واحدة ، مصحّفة إلى « كجواني » . ومع إشارته — رحمه الله — الى أنه نقل اسمها مع عدة من قبائل الأكراد ، من مروج الذهب للمسعودي[1] المؤرخ الكبير ، فقد ظهر لي

---

* محاضرة للدكتور مصطفى جواد ، ألقاها بدار المجمع .

(١) مختصر تأريخ الكرد وكردستان : الترجمة العربية (ص ٣٧٥) .

أنه نقل ذلك من دائرة المعارف الاسلامية ، لأن الطبعة الأوربية للمروج تذكرها بصورة « جاوان » ، ولا تُصحَّف الى « حَوْبانی » إلا بالنقل الى العربيّة ، اذا كان الناقل متصرّفاً أو متكلفاً .

وقــد ذكرت القبيلة في أكثر طبعات المروج مصحفةً الى « حاوان » بحاء مهملة ، على أن صاحب القاموس المجد الفيروزأبادي ذكرها في باب « الجيم والواو والنون » من قاموسه فلم يترك شكاً ، وأن كان تاج الدين السبكي ذكرها قبله بغير ضبط في طبقاته الكبرى (١) .

قال المسعودي في المروج : « وما قلنا في الأكراد ، فالأشهر عند الناس والأصح في أنسابهم أنّهم من ولد ربيعة بن نزار ، فأما نوع من الأكراد وهم الشاهجان ببلاد ماه الكوفة والبصرة ، وهي أرض الدينور وهمذان ، فلا تناكر بينهم أنّهم من ولد ربيعة بن نزار بن معدّ ، والماجوردان ، وهم من الكنكان ببلاد أذربيجان ، والهذبانيّة والسّراة ، وما حوت بلاد الجبال من الشاذنجان واللريّة ، والباردلكان ، والبارينجان والباريسيان ، والخالية والجباباتارقية والجاوانية » (٢) .

ولا شكَّ في أن الحاق الكرد بالأنساب العربية ، قد أصبح باطلاً عند أهل التحقيق والتدقيق ، وكان السبب فيه على ما أرى إثبات الأخوّة في النسب تبعاً للأخوّة في الدين ، وكثرة اختلاط الكرد بالعرب بحيث يعز على الكرد أن لا يكونوا من أصل عربيّ قديم ، فاخترع النسابون تلك النسبة .

والذي يهمنا كثيراً ذكر « الجاوانية » من الأكراد ، ففي النص المنقول من مروج الذهب دليل على أن قبيلة « جاوان » كانت في أواسط القرن الرابع من الهجرة من أشهر القبائل الكرديّة ، كما ذكرنا آنفاً في أول المحاضرة .

وقد ذكر هذه القبيلة في القرن السادس للهجرة العماد الأصفهاني في سيرة بعض أعيانها .

(١) طبقات الشافعية الكبرى « ٤/٨٨ » .

(٢) المروج « طبعة أوربة (٣/٢٥٤) وطبعة عبد الرحمن بن محمد (١/٣٠٨) وطبعة المكتبة المصرية (٢/٤٤) » .

قال : « الأمير أبو شجاع عاصم بن أبي النجم الكردي من أعيان الأكراد الجاوانية »[1] .

وقال الفيروزأبادي : « وجاوان قبيلة من الأكراد سكنوا الحلّة المزيدية بالعراق ، منهم الفقيه محمد بن علي الجاواني » . وزاد السيّد محمد مرتضى الزبيدي في شرح القاموس جملة : « الحلّي الشافعي » ، فصار « الكردي الجاواني الحلي الشافعي » . وقد ذكر هذا الفقيه السبكي في طبقاته ، قال : « محمد بن علي بن عبد الله أبو سعيد الجاواني الحلي العراقي ، وجاوان قبيلة من الأكراد سكنوا الحلة » وذكر أن مولده سنة ٤٦٨ هـ نقلا عن تأريخ ابن النجار[2] ، وهو الأصل في ذكر هذه القبيلة في سكان الحلة .

وإذ ذكر الفيروزأبادي أنهم سكنوا الحلة ، ينبغي لنا أن نذكر تأريخهم قبل سكناهم إياها وبعدها ، ونشير الى المحلة التي سكنوها فيها ، تلك المحلة التي لا تزال تعرف الى اليوم بمحلة الأكراد ، ولا يعرف أكثر الناس السبب في هذه التسمية ، حتى لقد ادّعى بعض الناس أنّ الأكراد يُراد بهم الكرّادة ، لأنّ لهم كروداً على شط الحلّة ، وهو تكلّف بارد ودعوى سخيفة ، فالفرق عظيم بين « الأكراد » و « الكرادة » ، والتأريخ يثبت إثباتاً لا شبهة فيه أنّ محلة الأكراد بالحلّة نسبت اليهم منذ تأسيسها الى أيامنا هذه ، فلا داعي الى التحمّل والتكلّف والتغاضي عن حقيقة تأريخية واضحة .

وكانت الحلّة قد شيّدت في أواخر القرن الخامس للهجرة ، شيّدها سيف الدولة صدقة ابن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي المزيدي ، وكانت منازل آبائه في بعض أصقاع نهر النيل ، في إقليم بابل أيضاً . فلما قوي أمره واشتد أزره ، وكثرت أمواله ورجاله ، انتقل الى الجامعين موضع في غربي عمود الفرات ، ليبعد عن الطالب اذا هرب . وكان ذلك في المحرم من سنة « ٤٩٥ هـ » على عهد السلطان بركيارق بن ملكشاه السلجوقي وفي خلافة المستظهر بالله العباسي ، وكانت أجمة تأوي اليها السباع ، فنزل فيها بأهله وعساكره وحلفائه ،

(١) خريدة القصر : نسخة باريس ٣٣٢٧ الورقة (١٥٢ـ٣) .

(٢) طبقات السبكي (٤/٨٨) .

وبنى بها مساكن جليلة ودوراً فاخرة ، وتأنق أصحابه في ذلك ، وقصدها التجار ، فصارت أفخر بلاد العراق وأحسنها[1] . وأنا لا أشك أن صدقة ومن معه انتقلوا بآجر بابل وغيره من الحضرة[2] العتيقة ، لقرب بابل من الحلة .

وسيأتي في البحث أن قبيلة جاوان الكردية كانت حليفة لقبيلة بني أسد ، فلذلك يعدُّ الجاوانيون من مؤسسي الحلة وسكانها منذ أواخر القرن الخامس للهجرة ، ومحلتهم محلة الأكراد كانت معروفة بهم منسوبة اليهم منذ القديم .

قال ابن بطوطة في وصف الحلة : « وأهل هذه المدينة كلها إمامية اثنا عشرية ، وهم طائفتان : إحداهما تعرف بالأكراد ، والأخرى تعرف بأهل الجامعين ، والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم أبداً »[3] . وكان سرور أبن بطوطة بالحلة سنة « ٧٢٧ هـ » . وفي قوله شيء من المبالغة فيما يختص بالمذهب وبالفتن ، فان الغرباء عن الحلة كانوا في الغالب يُحدثون الفتن فيهـــا .

وقد ورد ذكر محلة الأكراد بالحلة في أخبار أحد السادة القادمين للعراق في أواخر أيام الدولة الايلخانية ، وهو شهاب الدين أبو سليمان أحمد بن رميثة بن نجم الدين أبي نمي محمد العلوي الحسني المكي . وقد توجه أيام إمارة أبيه بمكة الى العراق ، وقصد الى السلطان أبي سعيد بهادر خان بن أولجايتو بن أرغون بن أباقا بن هولاكو المغولي ، فأكرمه وأحسن لقاءه ، وجعل اليه إمارة الحاج من العراق وسائر أقطار الدولة الايلخانية ، فقدَّم المحمل العراقي على المحمل المصري بعرفات ، وألزم الناس بمكة أن يتعاملوا بدراهم السلطان أبي سعيد . ثم عاد مع قافلة الحجاج ، فأعظمه السلطان أبو سعيد ، وأحله محلاً كريماً ، وفوّض إليه أمر الأعراب بالعراق ، فأكثر فيهم الغارة والقتل ، وعرُض جاهُه ، وكثر أتباعه ، وأقام بالحلة نافذ الأمر عريض الجاه كثير الأعوان ، الى أن توفي السلطان أبو سعيد المذكور سنة « ٧٣٦ هـ » ، فطرد الحاكم الذي كان بالحلة من قبل أبي سعيد ، وهو السيد علي بن طالب الحسيني الأفطسي

(١) معجم البلدان « الحلة » . (٢) الحضرة : هي مواد البناء .
(٣) رحلة ابن بطوطة (١/١٣٨) من طبعة مطبعة التقدم بالقاهرة .

الدلقندي ، وتغلب على الحلة وأعمالها ونواحيها ، وجبى الأموال ، وكثر في أيامه الظلم والاستصفاء ، الى أن تمكن الشيخ حسن الكبير بن حسن آقبوغا المعروف في التواريخ الفارسية بحسن بزرك مؤسس الدولة الجلايرية بالعراق ، فوجه عليه الجنود مراراً ، فأعجزه لمزاوغته مرة ومقاومته أخرى . ثم إنه توجه اليه بنفسه في جيش ضخم ، وعبر الفرات أولاً من الانبار ، ثم أحاط بالحلة ، فتحصن أحمد بن رميثة فيها ، فغدر به من أهل الحلة الذين اعتمد عليهم ، وخذلته الأعراب الذين جاءوا بهم مدداً ، وتفرق الناس عنه ، حتى بقي وحده ، فقاتل عند باب داره في الميدان قتالاً شديداً ، وقتل دونه أحمد بن فليتة الحسني وأبوه فليتة .

قال ابن عنبة النسابة : « ولما ضاق به الأمر توجه الى محلة الأكراد ، وكان قد نهبها مراراً ، وقتل جماعة من رجالها ، إلا أن الأكراد لما رأوه قد خذل أظهروا له الوفاء ، ووعدوه النصر ، وتعهدوا له أن يحاربوا دونه في مضايق دروب الحلة ، حتى يدخل الليل ، ثم يتوجه حيث يشاء . وكان الحزم فيما أشاروا به ، ولكنه خالفهم وذهب الى دار النقيب قوام الدين ابن طاووس الحسيني ، وهو يومئذ نقيب نقباء الأشراف . فلما سمع الشيخ حسن الكبير بذلك ، أرسل إليه شيخ الاسلام بدر الدين الشيباني المعروف بابن شيخ المشايخ ، وكان مصاهراً للنقيب قوام الدين ابن طاووس ، فأمّن الشريف أحمد ، وحلف له ، وأعطاه خاتم الأمان ، وأرسل به الى الشيخ حسن الكبير وهو نازل خارج الحلة ، فانتزعوا سيفه منه في بعض الطريق ، فقال لشيخ الاسلام : ما هذا ؟ فقال : لا أدري ، إنما كنت رسولاً وفعلتُ ما أمرت . ولما أدخل على الشيخ حسن الجلايري ، واصل الاعتذار ، فأظهر له الشيخ حسن القبول ، وطالبه بأموال الأعمال الحلية التي جباها في المدة التي حكم فيها ، وهي قريب من ثماني سنوات أو أكثر . فأجابه بأنه أنفقها ، فأمر بتعذيبه فعذّب ، حتى لقد كانوا يملؤون الطست من الجمر ويضعونه على صدره ، فلم يظهر لهم شيء من ماله . وأغراه به جماعة من الأعيان والسادة ، فقتله أبو بكر بن كنجاية بواء بأبيه ، لأن أحمد بن رميثة كان قد قتله ، قيل : إن أبا بكر بن كنجاية ضربه سبع ضربات بالسيف على عنقه حتى قتله ، وصلى عليه الشيخ حسن وأمراؤه ،

ودفن بداره بالحلة ، ثم نقل الى مشهد الغري بالنجف [1] .

أجل سكنت قبيلة جاوان الكردية بالحلة في أواخر القرن الخامس من الهجرة ، وانتشرت الى نحو واسط والبطائح ، كما أنا ذاكره عما قريب . ولكن أين كانت قبل ذلك ، وقد ذكرها المسعودي في الثلث الأول من القرن الرابع من الهجرة ؟ لا شك أنها كانت كسائر قبائل الأكراد من سكان الجبال والهضاب الباردة . وإذا تتبعنا إسمها ، أي نزولها من الجبل إلى السهل ، وجدناه من جهة طريق خراسان المعروف اليوم بلواء ديالى ، وألفينا اسم « ورام » من أشهر أسمائها [2] . وبعد استعرابها وغالطتها العرب ، كثرت فيها الأسماء العربية مثل « مهلهل وتغلب وعنتر » .

وفي سنة « ٣٩٧ هـ » كان أحد الأمراء الجاوانيين ، وهو ورام بن محمد مع أصحابه وجماعة من الأمراء الأكراد والأمير أبي الحسن علي بن مزيد العربي الأسدي المزيدي ، يحاولون حصار بغداد ، بأمر أمير كردي كبير هو بدر بن حسنويه البرزيكاني ، منابذةً لعميد الجيوش أبي علي الحسن بن أبي جعفر الديلمي [3] صاحب بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي .

وهذه أول مرة يقف فيها الجاوانيون الى جانب بني أسد متعاضدين متضافرين على ما علمت .

وفي سنة « ٤٢٠ هـ » سالت سيول الترك بقيادة السلجوقيين على إيران وغيرها من بلاد الاسلام ، فاجتمعت العرب والأكراد لصدهم ، فالعرب كانوا بقيادة قرواش بن المقلد العقيلي أمير الموصل وما إليها من الجنوب ، ودبيس بن مزيد الأسدي أمير العرب في الفرات الأوسط ،

(١) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب (ص ١٢٦ - ٨) .

(٢) وقد ذكر ابن بطوطة خبر شهاب الدين أحمد بن رميثة المقدم ذكره ، ذكراً مختصراً ، ولم يشر الى محلة الأكراد . قال : « وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الأمير أحمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة ، وحكمها أعواماً . وكان حسن السيرة ، يحمده أهل العراق ، الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق ، فعذبه وقتله ، وأخذ الأموال والذخائر التي كانت عنده » (رحلة ابن بطوطة ١/١٣٩) . وقد اختلف القولان في الرجل .

(٣) كامل ابن الأثير في حوادث سنة (٣٩٧ هـ) .

والأكراد بقيادة الأمير أبي الفتح بن ورام الجاواني وحسام الدولة أبي الشوك بن محمد بن عناز الكردي الشاذنجاني ، ونشب القتال بينهم شمال الموصل ، فدحروا الترك وأمراءهم السلجوقيين ، وملكوا خيمهم وأموالهم وتبعهم قرواش الى نصيبين [1] .

وفي سنة « ٤٣١ هـ » استعان جلال الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي بأبي الفتح بن ورام وأبي الفوارس بن سعدي ، ودبيس بن علي المزيدي عند شغب جنده الأتراك عليه واضطراب الأمن ببغداد [2] .

وفي سنة « ٤٣٢ هـ » حالف سرخاب بن محمد بن عناز الكردي الشاذنجاني أبا الفتح بن ورام الجاواني ، وأغار على عدة مواضع من إمارة أخيه حسام الدولة أبي الشوك في البندنيجين أي منديلي ، وحلوان ، في أثناء ما كان حسام الدولة محتلاً دقوقا أي طاووق ، منتزعاً لها من أخيه أبي الماجد المهلهل بن محمد بن عناز . فلما بلغه ذلك ، عاد إلى البندنيجين وحلوان خوفاً عليها من الجاوانية والشاذنجانية المناوئين له ، واستنجد بجلال الدولة بن بهاء الدولة البويهي ، فسيّر اليه نجدة من الجنود استطاع بهم أن يردّ أعداءه عن إمارته [3] .

ويظهر من الحوادث المتقطعة التي ذكرتها للجاوانيين أنهم كانوا يحالفون مخالفة الأتباع ، لا مخالفة الرؤساء ، فقديماً حالفوا الأكراد البرزيكانية ، والعرب ؛ ثم حالفوا الأكراد الشاذنجانية والعرب . ومما يؤيد ذلك أنه في سنة « ٤٣٨ هـ » انضمّ سعدي بن أبي الشوك المذكور الى ابراهيم ينال أخي السلطان طغرلبك من أمه ، وأخذ جيشاً من أكراد الشاذنجان ومن الأتراك الغزّ ، وأستولى على مدن وقرى بين إيران والعراق ، ثم جعل البندنيجين إقطاعاً لأبي الفتح بن ورام الجاواني ، على أن يوافقه في محاربة عمه سرخاب بن محمد بن عنّاز ، فجرت بينهم وقعة أسر فيها أبو الفتح بن ورام وسعدي ، وتفرق كثير من الأكراد والغز ممن كان معها [4] . ودلّت

(١) الكامل في حوادث سنة (٤٢٠ هـ) .
(٢) المنتظم (٨/١٠٤) ، والنجوم الزاهرة (٥/٣١) .
(٣) الكامل في حوادث سنة (٤٣٢ هـ) .
(٤) الكامل في حوادث سنة (٤٣٨ هـ) والمنتظم (٨/١٣٠) .

الحوادث على أنه أطلق من الأسر بعد ذلك .

ويغيب من الحوادث اسم الأمير أبي الفتح بن ورام ، بعض الشيء ، وفي سنة « ٤٣٩ هـ » أي بعد أسره بسنة يظهر اسم « أبي دلف القاسم بن محمد الجاواني » ، ويذكره التاريخ معه . وذلك أنّ ابراهيم ينّال أرسل في تلك السنة جيشاً من الغز ، لأخذ قلاع سرخاب المقدم ذكرُهُ . فسارت طائفة منهم الى أبي الفتح بن ورام الجاواني ، فانصرف عنهم خوفاً منهم ، وترك حِلَلَه أي منازله بحالها ، ليشتغلوا بنهبها فينقض عليهم ، فلم ينهبُوا شيئاً ، بل تبعوه ، ولشدة خوفه من أن يظفروا به ويأخذوه ، قاتلهم مقاتلة المستميت ، فأوقع بهم ، وقتل جماعة منهم ، وأسر جماعةً ، وغنم ما كان معهم ، ورجع الباقون هاربين ، وأرسل الى بغداد يستنجد بني بويه خشية أن يعود الغزُّ إليه ، فلم ينجدوه ، لانحلال الأمر واختلاله في دولتهم ، فاضطر هو وبنو ورام الجاوانيون إلى عبور دجلة ، إلى الجانب الغربيّ ليكون بمنجى منهم . وسارت طائفة منهم الى بَراز الرُوز أي بلدروز ، وتقدموا الى نهر السليل . فهناك قاتلهم أبو دلف القاسم بن محمد الجاواني قتالاً شديداً ، فظفر بهم ، وهزمهم ، وغنم ما معهم [1] .

فهذا هو الأمير الجاواني الثاني الذي أراد أن يثبت أقدام الجاوانيين في طريق خراسان ، ولكنّ غيره من الأكراد الطامعين الطامعين لم يُمهلوه ، فقد انضمّ سعدي بن أبي الشوك الشاذنجاني إلى السلطان طغرلبك ، وسار في خيل من الغز سنة « ٤٤٤ هـ » على أبي دلف المذكور ، ونهب أمواله ، وأفلت هو بحشاشة نفسه [2] .

والظاهر أن الاختلاف في المذاهب السياسية حمل الجاوانيين على إجابة الدعوة الفاطمية ، والخطبة للمستنصر بالله الفاطميّ في إماراتهم ، وترك الخطبة لخلفاء بني العباس . وكذلك فعل بنو مزيد الأسديون ، والعقيليون والخفاجيون وغيرهم ، ولا شك أن خوفهم من السلجوقية على إماراتهم وإقطاعهم ، كان أقوى الأسباب في ذلك .

وقد أرسل الخليفة العلوي المذكور من مصر بخلعة لكل من الأمير نور الدولة دبيس بن

(١) الكامل في حوادث (٤٣٩ هـ) . (٢) الكامل في حوادث (٤٤٨ هـ) .

مزيد الأسدي ، والأمير أبي الفتح بن ورام الكردي الجاواني ، وقريش بن بدران العقيلي ، ومقبل بن بدران العقيلي ، وأبي الحسن بن عبد الرحيم الوزير ، ومحمود بن الأخرم الخفاجي [1] المتحصن يومئذ بحصن عين التمر أي الأخيضر الحالي . واتصل الأمير أرسلان البساسيري بالدولة الفاطمية أيضاً وصار من قوادها المحاربين باسمها ، وإن كان تركي الأصل ومن مماليك بني بويه .

كان هؤلاء كلهم إلباً واحداً على العُزّ وأمرائهم السلجوقيين ، فسار اليهم طغرلبك سنة « ٤٤٩ هـ » ، وناجزهم القتال في شمالي العراق ، فهزمهم ، وأتبعهم أسراً وقتلاً ، وأحضر منهم جماعة فألقاهم تحت أرجل الفيلة ، فهلكوا إلا غلاماً لم يبلغ مبلغ الرجال ، فان الفيل امتنع من دوسه ، فعفا عنه السلطان . وكان في قواد السلطان الأمير هزارسب بن بشكير بن عياض الكردي ، فأقطعه الموصل ، ولكن جنود بني سلجوق نهبوها وأخربوها ، وسبى هزارسب النساء والرجال ، وفرّق فيهم مالاً ، وأعادهم الى الموصل ، وكانوا قد هربوا ، وسعى في اجتذاب أبي الفتح الجاواني والجاوانيين ونور الدولة دبيس وبني أسد وقريش بن بدران العقيلي والعقيليين الى جانب طغرلبك ، وإعادة الخطبة لبني العباس ، فجعلوا أبا الفتح بن ورام الجاواني سفيراً لهم ، ونجحت سفارته ، وخلع عليه السلطان خلعة سنية [2] . وانفصل عنهم أرسلان البساسيري وقال لهم : « لست لما يبذل لكم طغرلبك متحققاً ، وما غرضه إلا تبديد جمعنا ، وإنها حيلة علينا وسخرية بنا . وبعد ، فأنا صاحب سلطان مصر ، وهو بعيد عني ، ولست مالكاً لأمري ، ولا بُدّ من مطالعتي إياه ، واستدعاء إذنه فيما أفعل » ، وأغلظ لهم [3] ، وأصبح العراق مهدداً من الشمال بجيش الفاطميين الذي يقودهُ أرسلان البساسيري المذكور .

وفي نصف شوال من سنة « ٤٤٩ هـ » قدم بغداد أبو الفتح بن ورام الجاواني وبدران بن

(١) الكامل في حوادث (٤٤٨ هـ) ، و (٤٤٩ هـ) ، ومرآة الزمان « نسخة باريس » .

(٢) مرآة الزمان « نسخة باريس ١٥٠٦ الورقة ٢٣ — ٢٦ » .

(٣) المرجع المذكور في الموضع المشار اليه .

نور الدولة الزيديّ ، فتلقاها عميد العراق من قبل طغرلبك ، وأكرم مثواها ، وأستدعاها من الغد رئيس الرؤساء الوزير أبو القاسم علي بن المسلمة ، وعتب على أبي الفتح بن ورام ، لميله الى أرسلان البساسيري ، فقال له أبو الفتح : « أنتم أحوجتمونا إلى ذلك ، فان السلطان طغرلبك لما ورد هذه البلاد ، أبعدتم الناس كلّهم ، بنهب عساكره الأموال والأولاد والأهل ، فلم يبق لنا مكان نأويه ، فأصعدنا خوفاً على حريمنا وأموالنا » . فخاطبه الوزير بالجميل ، ووعده عن الخليفة القائم بأمر الله كل خير[1] . وكلام أبي الفتح بن ورام يدل على أنّ منهم من أستعربوا وأخذوا يتكلمون بالعربية المألوفة في عصرهم .

وفي سنة « ٤٥٠ هـ » في يوم الأحد ثاني ذي القعدة منها احتلّ أبو الحارث أرسلان البساسيريّ الجانب الغربي من بغداد باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطميّ ، وخطب في جامع المنصور له ، وألبس الخطيب والمؤذنون الثياب البيض شعار الفاطميين ، وزيد في الأذان « حيّ على خير العمل »[2] . والظاهر أنه استمال أبا الفتح بن ورام الجاواني والجاوانيين ونور الدولة دبيساً الزيديّ ، وأدخلهم في حزب الفاطميين . أما بنو مزيد الأسديون فهم شيعة إماميّة . وأما الأكراد الجاوانيون فانهم كسائر الأكراد شافعيون . وبعد أن أتم البساسيري فتح بغداد ، انحدر الى واسط ، وكان انحداره يوم الاثنين لتسع بقين من جمادى الأولى سنة « ٤٥١ هـ » وكان يريد الأهواز ، وابتدأ بالبصرة فرتب أصحابه فيها . وكان معه أبو الفتح بن ورام ونور الدولة دبيس وأخوه صدقة ، واجتمع إليه جماعة كثيرة من العرب والأكراد والأتراك والديلم . ولما علم بأن السلطان طغرلبك عاد الى العراق ، رجع هو الى واسط ، وأقام فيها يجمع الجنود للحرب والدفاع ، فتركه حلفاؤه ، وهم أبو الفتح بن ورام ودبيس بن منصور وغيرهما ، على أن دبيساً كان يخشى من السلطان ، فالتجأ إليه البساسيري وطرح نفسه عليه واستجار به ، واجتمعت العرب عند دبيس وهو بين الحلة وواسط على الفرات ، ومعه حليفه أبو الفتح بن ورام الجاواني والجاوانيون ، ورأى الجميع أنفسهم مضطرين إلى مقاومة طغرلبك ، ففاجأهم أحد قواده وهم

(١) المرجع المذكور (الورقة ٣٠) . (٢) المرجع المذكور (الورقة ٤٩) .

راحلون ، فثبت البساسيريّ وقاتل حتى قُتِل ، وانهزم دبيس بن منصور ، وأسر أبو الفتح بن ورام ، فأطلقه القائد واصطنعه ، وبلغ ذلك السلطان طغرلبك فامتعض منه . وأسر معه بدران ومنصور وحماد المزيديون ، فأعادهم السلطان الى دبيس تألفاً له[1] .

إنّ مناصرة أبي الفتح بن ورام الأمير الكردي الجاواني ، ومعه بنو جاوان ، للأمير نور الدولة دبيس بن منصور في مقاومة السلجوقيّين هذه المرّة ، وثقت الأواصر بينها ، ووحدت بين مستقبلها ، وبعثتها على التساكن والتآلف والتحالف المستدام ، ولذلك نرى الجاوانيين وبني أسد يثوبون معاً الى طاعة طغرلبك ، قال سبط ابن الجوزي في حوادث سنة « ٤٥٢ هـ » من تأريخه : « وفي يوم الخميس سابع عشر صفر ، دخل السلطان طغرلبك بغداد مصعداً من واسط ، وفي خدمته أبو الفتح بن ورام وأبو الأغر دبيس بن منصور المزيدي وصدقة بن منصور بن المزيدي وأبو كاليجار بن هزارسب بن بنكير بن عياض الكردي ، وعمل الخليفة القائم بأمر الله سماطاً عظيماً ، وحضره السلطان طغرلبك والأمراء الذين ذكرناهم ، وأستحلفوا على طاعة السلطان والخليفة وخلع عليهم خلع[2] » .

وأصبح بنو جاوان ، وفي إمارتهم بنو ورام أعوان الدولة العباسيّة ، ورغبوا في إصلاح البلاد ، فسدّوا في السنة المذكورة أي سنة « ٤٥٢ هـ » شق النهروانات[3] . ومن البديهي أنهم لم يفعلوا ذلك إلا للازدراع والاغتراس ، ومن ذلك يعلم أنهم كانوا يسكنون كلهم أو كثير منهم الجانب الشرقي من دجلة إذ ذاك ، حيال طريق خراسان . وقد ذكرنا أنه كان منهم ببراز الروز أي بلد روز أبو دلف القاسم بن محمد الجاواني الذي أوقع بطائفة من جند السلاجقة هناك سنة « ٤٣٩ هـ » ، والظاهر أنهم امتدوا في السكنى على النهروان من شرقي بغداد الى جرجرايا[4] التي كانت قرب أرض السكوت ، وسنذكر من الحوادث ما يثبت ذلك .

---

(١) المرجع المذكور (الورقة ٥٨ـ٩ـ٦٤) ، والمنتظم (٨/٢٠٨ـ٢١٠) ، والكامل في حوادث سنة (٤٥٠ هـ) لأنه أدمج حوادث السنتين بعضها في بعض .

(٢) مرآة الزمان المتقدم ذكره (الورقة ٦٨) . (٣) الكامل في حوادث السنة المذكورة .

(٤) الكامل في حوادث سنة (٤٥٥ هـ) .

وفي سنة « ٤٥٥ هـ » توفي السلطان طغرلبك بالريّ ، وكثرت غارات العرب على ما حول بغداد ، حتى أخذُوا ثياب الناس من أبواب بغداد . فكاتب الخليفة القائم بأمر الله أصحاب الأطراف الأمير أبا الفتح بن ورام وأبا النجم بن ورام أخاه وأبا كاليجار هزارسب وبدر بن مهلهل وهم من أمراء الأكراد كما قدمنا ، ومسلم بن قريش العقيلي ودبيس بن علي المزيدي وهما من أمراء العرب ، كاتبهم بما حدث من موت طغرلبك والأحداث التي حدثت ، واستدعاهم الى بغداد ليتشاورُوا في تدبير الأمر . فأما الأميران أبو الفتح وأبو النجم ابنا ورام ، فقد قدما بغداد في عُدّة قوية ، ونزلا ظاهر حريم دار الخلافة[1] في الجانب الشرقي ، أي مايشقه اليوم سوق الشورجة أيام كان هذا الجانب كثير البساتين والسّواقي والمياه ، وتوقف دبيس المزيدي عن الحضور ، وأرجف في بغداد بأن مسلم بن قريش العقيلي عازم على دخول بغداد محتلاً ، وأنه سيسكن في دار المملكة البويهية في المخرم أي الصرافية الشرقية الحالية في الجسر الجديد ، وسيحاصر دار الخلافة وكانت بشارع المستنصر الحالي ، كما دلتنا عليه الخطط ، وينهبُها . فانزعج الناس ، واستعدُوا هم والجاوانيون والجنود لصدّه عن بغداد ، ولكنه كتب الى الخليفة كتاباً ينفي عن نفسه تلك التهمة ، فلم يلتفتوا الى قوله[2] . ثم توفي ببغداد الأمير أبو الفتح بن ورام الكردي الجاواني ، وحملت جنازته الى جرجرايا قرب أرض الكوت الحالية ، فدفن هناك[3] . وانقطعت بموته سيرة أمير كردي عظيم ، كان له في السياسة والحروب جولات موفقة ، وصولات ظافرة ، واليه يعود الفضل في اخراج قبيلة جاوان من مكانها الضيّق الى هذه الفسحة من الحوادث والتأريخ المفعم بالحياة والحركات . وقد صارت أسرته تعرف بالورامية نسبة إلى والده على عادة المؤرخين ، وإنما هو الذي أنالهم ذلك المقام السامي ، والملك المترامي الأطراف من العراق .

ويظهر لي أن إمارة الجاوانيين بعد وفاة أبي الفتح بن ورام أسندت إلى أخيه أبي النجم ، على أني لم أجد نصاً على ذلك في التاريخ . وفي سنة « ٤٨٨ هـ » أرسل الملك تاج الدولة تتش بن

(١) مرآة الزمان المقدم ذكره (الورقة ٩٤ـ٢) . (٢) المرجع المذكور (الورقة ٩١ـ٢) .
(٣) الكامل في حوادث سنة (٤٥٥ هـ) .

ألب أرسلان السلجوقي ملك الشام والجزيرة ، أحد أمرائه واسمه « يوسف بن أبق » ، وكان من التركمان ، إلى بغداد ، لاقامة الدعوة والدعاء له بالسلطنة السلجوقية العظمى على عهد الخليفة المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله ، وكان ينازعه في ذلك ابن أخيه السلطان بركيارق بن ملكشاه ، فأخرج لتلقيه حاجب من حجاب ديوان الخلافة . فلما لقيه يوسف ، ضربه ، وأراد خروج الوزير عميد الدولة أبي منصور ابن جهير التغلبي ، وكان متكبّراً متفاصحاً ، ودخل الأمير يوسف بن أبق بغداد مراغماً ، وأراد نهبها والإيقاع بأهلها ، فمنعه من ذلك أمير كان معه ، ومع ذلك فقد استدعى الوزير عميد الدولة ابن جهير الأكراد الجاوانية وأميرهم يومئذ ورام بن أبي فراس الجاواني للدفاع عن بغداد ، فحضروا . فقال الوزير لحاجبه متفاصحاً : « قل للورّامية : استلئموا بسدفة » أي ألبسوا سلاحكم في ظلمة الليل . فلم يفهم الحاجب ، وقال لهم : « يقول لكم مولانا : ناموا في الصُفّة » ، فقال ورام بن أبي فراس مستعجباً : « فكأنّا برحنا الصفة حتى يقول لنا الوزير هذا القول » . فعاد الحاجب الى الوزير فقال له : ما الذي قلت لهم ؟ فأخبره . فضحك الوزير ، وقال : « شر المصائب ما يضحك » . وكان خليقاً أن يضحك من نفسه لتفاصحه . ثم جاء الخبر بقتل تاج الدولة تتش ، وانفرجت الأزمة [1] .

وبهذا الخبر نعلم أنّ إمارة بني جاوان صارت الى الأمير ورام بن أبي فراس ، ولم أجد في التاريخ حتى اليوم كيف صارت الإمارة اليه . وفي أيام هذا الأمير انتقل الجاوانيون أو أكثرهم إلى أرض الجامعين قرب بابل ، ليؤسّسوا الحلة مع أمير بني أسد صدقة بن منصور بن دبيس المزيدي الذي قدمنا شيئاً من أخباره ، وليسكنوها في المحلة المعروفة بعد ذلك بمحلة الأكراد على النحو الذي ذكرت وبحسب الأخبار التي نقلت . وإذ كان الجاوانيون قد قرّروا مستقبلهم بمستقبل بني أسد وهم من الشيعة ، لم يكن لهم بُد من التأثر بمذهب ذوي الأكثرية وإن كانوا من الشافعية ، كما أومأنا اليه سابقاً [2] . وليس من الصواب في شيء أن يحكم المؤرخ في مذهب

(١) المنتظم (٩/٨٤ ــ ٥) ، والكامل « حوادث سنة ٤٨٨ » .

(٢) وقد وجدت بخط الأمير فخر الدين أبي محمد عنتر بن أبي العسكر الجاواني دعوات قد استفادها =

رجل اعتماداً على أيام صباه . ولما كثر الاختلاف بين ملوك السلاجقة ، أخذت سلطة أمراء الأطراف تتسع ، وأقطاعاتهم تعظم ، وكانوا يؤدون عن المدينة أو القطر خراجاً سنوياً الى السلطان السلجوقي ، وكانوا يُباطِلونه أحياناً . وقد اتسع ملك الأمير سيف الدولة صدقة بن منصور المذكور . وفي صفر من سنة « ٥٠٠ هـ » استولى على تكريت ، وكانت بيدي كيقباذ بن هزارسب الديلمي ، وذلك أن السلطان محمد بن ملكشاه لما استقرَّ في السلطنة السلجوقية بعد موت أخيه بركيارق ، أقطع قسيم الدولة آقسنقر التركي البرسقي بلدة تكريت ، فلم يسلمها إليه كيقباذ الديلمي المذكور ، وراسل الأمير صدقة بن منصور ، فجاء في جيشه ، وفيهم الأكراد الجاوانيون ، وتسلمها من كيقباذ ، وجعل فيها الأمير ورام بن أبي فراس بن ورام الجاواني نائباً عنه [1] .

وقد اعتمد سيف الدولة صدقة وأهله على جماعة من الأمراء الجاوانيين ، وأقطعهم بلاداً في الأعمال الواسطيّة وغيرها ، منهم الأمير أبو النجم الكردي الجاواني مؤسس قرية أبي النجم المنسوبة إليه ، وكانت عند قرية الفاروث الكبيرة [2] التي كانت على شاطىء دجلة بين واسط والمذار ، فهل هو أبو النجم أبن ورام الذي قدمنا ذكره مع أخيه أبي الفتح آنفاً ؟ ومنهم الأمير أبوشجاع عاصم بن أبي النجم المذكور ، وكان متمكناً متحكماً في أسفل واسط على دجلة ، حيث يأخذ منها نهر برجدا ونهر الصينية . وإليه تنسب قرية « العاصمية » من أمهات قرى نهر برجدا ، وكان بطلاً من الأبطال ، وكان من عادته أن يقصد الأسد في عرينه ويطعنه بحربة ،

= من الأدباء الشيعة في صباه ، وكتبها في مجموعه ، من ذلك :

بختام الرســالات هداتي من بني هاشم   بمن صام بمن صلى بمن صدق بالخاتم
بحق البضعة الزهرا ء حواء النسا فاطم   وبالمسموم والمقتو ل ظلماً لمن الظالم
وبالسجاد والباقـ ـر والصادق والكاظم   وبالمدفون في طوس علي وقد العالم
بحق العسكريين وبالمنتظر القائم

تلخيص معجم الألقاب (٤/٢٤٤) ، والمناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية (نسخة المتحفة البريطانية ٢٢٢٩٦ الورقة ١٣٠) .

(١) الكامل في حوادث سنة (٥٠٠ هـ) ، والمناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية (النسخة المقدم ذكرها الورقة ١٤٤) .

(٢) خريدة القصر (نسخة باريس رقم ٣٣٢٧ الورقة ١٠٢) .

ولعله قتل في عمره خمسين أسداً على النحو الذي ذكرت ، لم يشاركه في قتلها أحد . وكان أديباً أريباً ، ومستمر حرب . وكان له مرة خصم ينازعه في بعض الأملاك ، وكان قد حلف زوراً بالقرآن الكريم ، فكتب الى سيف الدولة صدقة بن منصور المذكور يشكو منه أبياتاً ومقطعات ، فمنها قوله :

مولاي خصمي فاسق ، ومن ادّعى زوراً ولم يخش العواقب يحلف
ولأخذ مالِ المسلمين وغصبُهُ بالزُّور أعظمُ من يمين المصحف

وقوله :

وخصمي ذو مالٍ ، ومن أجل ماله أهانُ وما يلوى عليَّ ويُكرمُ
ولو حلَّ ذو مالٍ بأكناف فارس ونادى أجابته قريش وجُرهمُ (١)

وله أبيات يترثى فيها لما صار إليه بنو أسد بعد قتل الأمير سيف الدولة صدقة ، سنذكرها في موضعها .

ومنهم الأمير سيف الدولة أبو النجم بدر بن ورام الكردي الجاواني ، كان يسكن « طسفونج » قرية كبيرة كانت في شرقي دجلة مقابل النعمانية بين بغداد وواسط ، وقد توفي سيف الدولة هذا في شهر ربيع الأول من سنة « ٤٧٢ » (٢) .

والظاهر أن له أخاً اسمه « شرف الدولة محمد بن ورام » ، وكان شرف الدولة قد أنشأ مدرسة للشافعية بواسط . وممن درّس فيها فقه الإمام الشافعي ، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الله الواسطي الشافعي ، قال تاج الدين السبكي : « درس بواسط بمدرسة ابن ورام ، وبها مات أي بواسط في حادي عشر المحرّم سنة ست وسبعين وخمسمئة » (٣) . ووجدت في تاريخ واسط لأسلم بن سهل الرزاز المعروف بحشل أنّ أبا غالب محمد بن علي بن أحمد الكتاني الشافعي المحتسب سُمِع عليه هذا التاريخ سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة بواسط في مدرسة شرف الدولة

(١) المرجع المذكور في الموضع المشار اليه .
(٢) الكامل في حوادث سنة (٤٧٢ هـ) .
(٣) طبقات السبكي (١٠٩/٤) .

محمد بن ورام . قال الكاتب في الدعاء لمؤسسها : « نور الله ضريحه[1] » ، فدلّنا ذلك على كونه من الأموات إذذاك .

وفي سنة « ٥٠١ هـ » سخط السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي على أبي دلف سرخاب ابن كيخسرو صاحب آوة وساوة بين الري وهمذان ، فهرب الى العراق ، واستجار بسيف الدولة صدقة بن منصور الأسدي المزيدي المذكور فأجاره ، وأرسل السلطان اليه في تسليمه الى نوابه بالعراق . فأبى صدقة وأجابه يقول : « إنه استجار بي ، وإنني لا أمكن منه ، بل أحامي عنه ، وأقول ما قاله أبو طالب لقريش لما طلبوا منه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

كذبتم وبيت الله نُبْزي محمداً ولما نطاعنْ دونه ونقاتلِ »

[وقبل هذا البيت :

ونسلمُهُ حتى نصرَّعَ حوله ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ]

فقدم السلطان محمد العراق ، وحشد الجنود لقتال صدقة بن منصور . وبعد مراسلات ومفاوضات كادت تؤدي الى الاصطلاح ، التحم الجيشان في أرض قوسان . وهي منطقة نهر الغراف الحالي ، وكان في ميمنة جيش صدقة حلفاؤه الأكراد الذين لم يكونوا إلا من بني جاوان فأظهروا من الشجاعة في القتال ما حمل صدقة أن يعدَهم الوعودَ السنيّة : من الحكم والأقطاع والمال ، وحمل هو على الأتراك ، فضربه مملوك منهم على وجهه فشوّهه ، وجعل يُقاتل ويقول : « أنا تاج الملوك أنا ملك العرب أنا صدقة » فأصابه سهم في ظهره ، وأدركه مملوك تركي آخر اسمه بزغش ، كان أشلّ اليد ، فتعلّق به وجذبه عن فرسه ، فسقطا إلى الأرض معاً ، وعرفه صدقة فقال له « يابزغش أرفق » ، فضربه بزغش بالسيف ، فقتله وأخذ رأسه ، وهزم جيش صدقة وحلفاؤه الجاوانيون ، وأسر ابنه دبيس ، وجارُهُ سُرخاب بن كيخسرو الديلمي ، وصاحب جيشه[2] . وهرب ابنه بدران الى حلب ، ثم الى مصر فتوفي فيها سنة ٥٣٠ هـ . وكانت تلك الوقعة

(١) تاريخ واسط لبحشل : نسخة المتحف العراقي (ص ٢٥٤ ــ ٥) .
(٢) الكامل في حوادث سنة (٥٠١ هـ) ، والمنتظم (٩/١٥٦ ، ٢٣٦) .

فاتحة عهد مشؤوم على بني أسد وبني جاوان ، ويظهر أنّ السلطان محمداً أراد ضرب الأكراد بأكراد آخرين منهم جرياً على المذهب السياسي ، وذلك بأن أقطعهم أكثر البلاد التي كان يحكمها سيف الدولة صدقة وحلفاؤه الجاوانيون ، ومن أولئك الأكراد رجل اسمه « سياكيل » ، وفي ذلك يقول الأديب الأمير أبو شجاع عاصم بن أبي النجم الجاواني من أبيات :

فقلت لها : كفّي ، جُعلت لكِ الفدا ألم تعلمي أنّ الزمان قد انقلبْ ؟
قُرى النيل قد أضحى سياكيل آمراً بها ، ونَفي بدرانُ منها إلى حلبْ[1]

وفي ذلك يقول صارم الدولة مرجى الليثي البطائحي الشاعر :

وقد كثر الأقطاع حتى أظنّهُ سيُقطع كلبٌ في الجزيرة أو هِرُّ
ثلاثون ألفاً للبشيري وحده فدعْ عنك من لا يجوز له ذِكْرُ
وعشرين ألفاً أقطعت زرجسيّة كثيرٌ لها ألفٌ ولو أنها عَشْرُ
وما كان اسياكيل يركب خلفه جيادُ البراذين البشيريةِ الحمر
ويركب سلّار أخوه بأهبة ومن خلفه فَهْد وقُدّامهُ صقر[2]

قال العماد الكاتب الأصفهاني في « البشيري والزرجسية » : إنّ « البشيرية والزرجسية بطنان من الأكراد بحلّة ابن مزيد ، وقد أقطعوا أكثر مما يستحقونه »[3] . وهذا يعني أنها بطنان من قبيلة جاوان ، قدّمها السلطان السلجوقي على بني جاوان الآخرين ، على النحو السياسي الذي أشرت اليه من ضرب الأكراد بآخرين منهم .

وقد جاء في سيرة الشيخ أبي الوفاء محمد الزاهد ، الملقب بتاج العارفين المتوفى في أول القرن السادس ، المعروفة تربته حتى اليوم في مقابل أرض الكوت من غربي دجلة ، أنه « كان زرجسي الأصل ، وأنّ زرجس قبيلة من الأكراد ، وأنه قال : « أمسيت عجمياً وأصبحت عربياً »[4] .

(١) خريدة القصر « النسخة المذكورة ، الورقة ١٥٣ » .

(٢) الخريدة المذكورة في (الورقة ١٧٠/١) ونصرة الفترة وعصرة الفطرة : نسخة دار الكتب الوطنية بباريس (٢١٤٥ الورقة ١٠٠) .

(٣) نصرة الفترة في الموضع المذكور . (٤) بهجة الأسرار ومعدن الأنوار « ص ٢٤٣ » .

وذكر الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد المنعم الواسطي الأصل أن والد الشيخ أبي الوفاء كان علوي الأصل ، حسني الفرع ، أقام بين بني نرجس (بالنون وقيل بالباء والأول أشهر) وهي قبيلة من الأكراد ، وتزوج بنت كبير منهم ، وأن أبا الوفاء اشتهر بتاج العارفين الكردي نسبة الى أخواله وقوم أمه [1] ، وأنا أظن أن نسب الشيخ أبي الوفاء انتحل بعد وفاته ، وبعد زوال الدولة العباسية أزمان تضاءلت الرقابة على الأنساب الشريفة ، واستبق سادة الدنيا إلى ربط أنساب العُبّاد الزهاد بالنسب العلوي ، كما استبقوا في اختراع المناقب والكرامات .

وأعود إلى إمارة المزيديين وحلفائهم الجاوانيين ، فان السلطان محمداً السلجوقي وإن قلّص اقطاعاتهم فهو لم يزل إمارتهم بالحلّة ، بل أطلق من الأسر دبيس بن صدقة واستحلفه أن لا يسعى بفساد [2] . وهذا يعني نصب دبيس بن صدقة مكان أبيه في إمارة الحلّة ، وبالتعبير الرسمي يومئذ في أقطاعها ، وقد بقي أكثر الأكراد الجاوانيين بالحلة وفي البلاد التي سكنوها من أواسط البلاد الفراتية ، محالفين له ومن حزبه .

وتوفي السلطان محمد السلجوقي سنة « ٥١١ هـ » ، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود ، وتوفي الخليفة المستظهر العباسي سنة « ٥١٢ هـ » ، وبويع بالخلافة ابنه الخليفة المهام المسترشد بالله أول شهيد لاستقلال الدولة العباسية في القرن السادس من الهجرة .

وكان الأمير دبيس شديد الطمع في الملك والطماح الى توسيعه ، فآوى الأمير أبا الحسن ابن المستظهر بالله أخا الخليفة المسترشد . وكان قد هرب من رقابة أخيه المسترشد في دار الخلافة ، فنشب خلاف بين الخليفة وبينه [3] ، كانت نتيجته هلاكهما ، وتعظيم التاريخ للمسترشد وتحقيره لدبيس على مرّ الدهور . وأول ما كايد به المسترشد دبيساً أن أضاف دار أبيه صدقة بدرب فيروز من شرقي بغداد ، أضافها الى جامع القصر المعروفة بقاياه اليوم بجامع سوق الغزل ، بحجة

(١) تذكرة المقتفين آثار أولي الصفا وتبصرة المقتدين بطريق السيد أبي الوفا : (نسخة باريس ٢٠٦٣ الورقة ٧ــ٨) ، وغاية الاختصار في البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار (ص ٧٠) .

(٢) الكامل في حوادث سنة « ٥٠٩ هـ » .

(٣) الكامل في حوادث سنة (٥١٢ هـ) ، والمنتظم (٩/١٩٨) .

أنه مُصلّى الجمعة في جميع بغداد الشرقية ، وأنه يضيق بالمصلين يومها ، فكتب دبيس فتوى مضمونها : « ما يقول السادة الفقهاء في رجل اشترى داراً ، فغصبها منه رجل جعلها مسجداً ، هل يجوز ذلك للغاصب أم يُلزَمُ بردّها الى مالكها ؟ » فكتب قاضي القضاة أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني الحنفي ، وهو من أجلّ فقهاء الاسلام وأعظمهم ، والقضاة والفقهاء : « لايجوز ذلك ، ويجب على الغاصب ردُّها ، ولايصح وقفها » . فرفع ذلك دبيس الى الخليفة المسترشد ، وأظهر كتاباً أي سنداً بأن أباه صدقة اشترى الدار المذكورة من وكيل الخليفة المستظهر بالله بخمسة عشر ألف دينار ، وأنفق عليها ثمانية عشر آلاف دينار . فلم يردّها إليه المسترشد[1] ، بل صالحه عليها بمال .

وأخبار هذه الدار عجيبة ، فانها كانت في حياة صدقة أشبه بدور الندوبين السامين في عصرنا ، يلجأ إليها الطريد والشريد والمطلوب والخائف ، فيكون في أمان ، وان كان صاحب الدار بعيداً عنها . قال ابن الأثير في حوادث سنة « ٥٠١ هـ » : « في هذه السنة في صفر عُزل الوزير أبو القاسم علي بن جهير وزير الخليفة المستظهر بالله ، فقصد دار سيف الدولة صدقة ببغداد ملتجئاً إليها ، وكانت ملجأ لكل ملهوف ، فأرسل اليه صدقة من أخذه من الدار الى الحلة ... وأمر الخليفة بنقض داره التي بباب العامة »[2] . فالخليفة وغيره من أرباب الدولة وأتباع السلطنة ، لم يستطيعوا أذاه في بدنه ، ولولا دار صدقة ما سلم بدنه . وللدار أخبار أخرى لا محلّ لذكرها الآن .

وبدا العداء العملي إن صح التعبير بين المسترشد ودبيس ، بأن برز آقسنقر البرسقي نائب السلطان محمود السلجوقي ببغداد في جيش الى الرقة : رقة ابن دحروج ، وهي محلة الكريمات والشواكة الحالية ، فنزل بأسفلها ، وأعلن أنه قاصد بجيشه الحلة لاجلاء دبيس بن صدقة منها ،

(١) المنتظم (٩/١٩٨ـ٩) ، والمرآة (٨/٧١) ، والكامل في حوادث سنة (٥١٢ هـ) .

(٢) الكامل في حوادث سنة (٥٠١ هـ) .

فجمع دبيس جموعاً كثيرة من العرب والأكراد الجاوانيين ، ووزع فيهم سلاحاً وأموالاً كثيرة ، وأستعد للحرب ، ثم أنضم الى آقسنقر البرسقي الأمير آي آبه جيوش بك أتابك الملك مسعود السلجوقي ، وأبو الهيجاء الكردي أمير إربل أي أربيل ، والأمير كرباوي بن خراسان التركماني أمير البوازيج ، فخافهم دبيس لكثرتهم ، وحاجزهم ولاطفهم . ثم قدم العراق أمير اسمه عماد الدين منكبرس ، فأستمالة دبيس واستحلفه واتفقا على التعاضد والتناصر ، والتقيا قرب النعمانية . وكثر الفساد بالعراق بسبب أختلاف الأمراء ، ونهب المتخاسمون السواد نهباً فاحشاً ، فمن ذلك قرى نهر الملك ونهر عيسى ونهر صرصر وبعض معاملة دجيل . وقد ذكر أبن الأثير أنهم أستباحوا النساء . ثم أمر الخليفة المسترشد بالموادعة والمصالحة ، وترك الفساد وحقن الدماء ، وآل الأمر الى أن أستقر منكبرس شحنة أي حاكماً عسكرياً ببغداد ، وكان قد تزوج سُرّية السلطان محمد السلجوقي أم الملك مسعود سرجهان قبل انقضاء عدتها ، فأوغر صدور السلجوقيين ، وودعه الأمير دبيس وعاد الى الحلة . وبقي منكبرس يظلم ويعسف الرعية ويصادر الناس [1] .

وفي سنة « ٥١٦ هـ » التقى عسكر آقسنقر البرسقي وعسكر دبيس ، وفيهم الجاوانيون الأكراد ، عند نهر بشير من نهر الملك شرقي الفرات ، وهو غير نهر بشير من فروع دجيل ، فدُحر جيش البرسقي . ثم إن دبيساً أمر جماعة من أصحابه بالمسير الى أقطاعهم بواسط ، فساروا إليها ، فنعمهم أتراك واسط ، فجهّز إليهم دبيس عسكراً ، وجعل قيادته الى الأمير ضياء الدين مهلهل أبن أبي العسكر الكردي الجاواني ، وأرسل إلى المظفر بن أبي الجبر الليثي أمير البطائح في أن يتفق مع مهلهل ، ويساعده على الواسطيين ، وعجل مهلهل ، ولم ينتظر المظفر ظناً منه أنه يستطيع دحرهم ، فهزموه ، ودحروا جنده من الأكراد وغيرهم من بني أسد ، وأدركوه وجماعة من أعيان الجند فأسروهم ، وقتل من الجيش نحو من ألف قتيل [2] .

(١) الكامل في حوادث سنة (٥١٢ هـ) .

(٢) الكامل في حوادث (٥١٦ هـ) ، والمنتظم (٢٣٢/٩) .

وفي سنة « ٥١٧ هـ » سار البرسقي وهو في معية الخليفة المسترشد إلى دبيس ، وكان البرسقي قد برز بجيش من المتطوّعين للجهاد ، والمستنفرين من العرب ومنهم سليمان بن مهارش العقيلي وقرواش بن مسلم العقيلي ، وغيرهما من الجنود المأجورين . ولما علم دبيس بالأمر ، كتب الى الخليفة المسترشد ، يستعطفه ، فلم يعطف عليه ، وتقدم الخليفة في الجيش إلى منطقة النيل من شرقي الفرات الأوسط ، ونزل الجيش قرية المباركة ، وعُبّيء الجيشان جيش دبيس وجيش الخليفة المسترشد والبرسقي ، وكان في جيش دبيس الأمير فخر الدين أبو محمد عنتر بن أبي العسكر الجاواني وهو أخو الأمير مهلهل الذي قدمنا ذكره ، فحمل عنتر في طائفة من الأكراد الجاوانيين والعرب على ميمنة جيش البرسقي ووراءها الخليفة المسترشد ووزيره والأعيان ، فردّها على أعقابها ، ثم كرّ عنتر على الميمنة نفسها وحطمها حطماً . ثم اختلفت الأقوال فأبو الفرج ابن الجوزي يذكر أن عنتراً الجاواني خان وغدر واستأمر لجيش البرسقي رغبة منه في طاعة الخليفة وأن لا يكون خارجاً عليه ، بحيث إنّ جماعة من عسكر دبيس لما رأوا الخليفة المسترشد ووزيره يصمدان بعد حملة عنتر ، على ضفة نهر عتيق ، قالوا : إنّ عنتراً غدر فلم يَصْدق القتال . وابن الأثير يعدّ عنتراً صادقاً للقتال ، إلا أنّ عماد الدين زنكي بن آقسنقر حمل في عسكر واسط على عنتر وفرقته وأتوهم من ظهورهم ، فبقي عنتر في الوسط ، وأسروه مع أصحابه [1] . وهرب دبيس وكثير من جيشه ، وأسر منهم آلاف ، وقتل كثير .

وقد أراد ابن الأثير أن يظهر شجاعة عماد الدين زنكي بتقاضيه من مخامرة عنتر ، وكان يكثر من مدح زنكي بالشجاعة . وكان قد قال في حوادث سنة « ٥١٢ » : إن الملك مسعوداً سار الى العراق ومعه وزيره فخر الملك بن عمار وزنكي بن آقسنقر جدّ ملوكنا الآن بالموصل ، وكان من الشجاعة في الغاية » [2] . فلو لم يكن عنتر مخامراً مستأسراً لأمر الخليفة المسترشد بقتله ، لمّا أمر بقتل الأسرى في تلك الوقعة ، باعتدادهم خوارج خرجوا على إمام الأمة ، قال ابن الأثير :

(١) المنتظم (٩/٢٤٢ـ٣) والكامل (١٠/٢١٥ـ٦) .

(٢) الكامل في حوادث سنة (٥١٢ هـ) .

« وحملت الأسرى إلى بين يدي الخليفة المسترشد ، فأمر أن تضرب أعناقهم صبراً »[1].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي : « وأسر خلق كثير من عسكر دبيس . وكان الواحد منهم إذا قدم ليقتل ، قال : « فداك يا دبيس »[2]. وذكر سبط ابن الجوزي : أن الأسرى كانوا ثلاثة آلاف أسير[3] ، وكان بينهم جماعات من الأكراد الجاوانيين . وفي فخر الدين عنتر بن أبي العسكر الجاواني يقول سعد بن محمد بن صيفي حيص بيص الشاعر :

إذا فلقت بيض السيوف فلاهةً ... سقاها فروّاها من الهام عنتر
ولم أرد العبسي أسكن ميتةً ... ومَنْ هو أولى بالثناء وأجدرُ
فإنْ فخرت عبسٌ بفارسِ رعيها ... فإنّ بني الجاوان أعلى وأفخرُ
فتىً هو للعافي من الجود مَورد ... وللخائف الجاني من الخوف مصدرُ

وفيه يقول أيضاً :

وإنّي وإن أمسيتُ سيّدَ دارم ... أناضلُ عن أحسابهم وأقارعُ
لَمُثْنٍ على الجاوان من أجلِ عنترٍ ... ثناءً إذا كتّمتُهُ فهو ذائعُ
فتى الحيّ أمّا عذرُهُ فهو ضيّقٌ ... لعافٍ وأمّا جُودُهُ فهو واسعُ
مَرير القُوى نيطت حمائلُ سيفه ... إلى باسلٍ تُثني عليه الوقائعُ[4]

وفي سنة « ٥٢٩ هـ » أمر السلطان مسعود بن ملكشاه ، الذي ذكرناه سابقاً موصوفاً بالملكية ، بقتل الأمير دبيس بن صدقة المزيدي ، وجعلت الإمارة في الحلّة لابنه صدقة الصغير أي صدقة الثاني بالاصطلاح العصري . ثم حدث في سنة « ٥٣٠ » أن اجتمع أصحاب الأطراف على حرب السلطان مسعود ، لسوء سيرته وخوفهم منه ، فقدم جماعة منهم بغداد ، ومنهم الأمير صدقة بن دبيس صاحب الحلة ، ومعه الأمير عنتر بن أبي العسكر الجاواني يسدّد أمره ويتمّ نقص صباه[5] ، فكان بمثابة أتابك له على اصطلاحهم . وفي أوائل سنة « ٥٣٢ هـ » جرت

(١) الكامل في حوادث سنة (٥١٧ هـ) . (٢) المنتظم (٩/٢٤٣) .
(٣) المرآة (٨/١١٠) .
(٤) نصرة الفترة وعصرة الفطرة النسخة المقدم ذكرها (الورقة ٢١١) .
(٥) الكامل في حوادث سنة (٥٣٠ هـ) .

حرب بين السلطان مسعود وابن أخيه داوود بن محمود ، ومعه الأميران بوزابه صاحب خوزستان ومنكبرس صاحب فارس . وكان مع السلطان مسعود جماعة من الأمراء ، منهم صدقة بن دبيس المذكور ، وأتابكه عنتر بن أبي العسكر الجاواني ، والتقى الجيشان في بعض بلاد إيران السفلى ، فهزمهم مسعود ، وأسر منكبرس فقتل بين يديه صبراً ، وقبض الأمير بوزابه على جماعة من الأمراء منهم صدقة بن دبيس وأستاذه عنتر بن أبي العسكر . فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس ، قتلهم أجمعين . وهكذا كانت نهاية البطل عنتر الكردي الجاواني . وبعد قتل صدقة بن دبيس ، جعل السلطان مسعود إمارة الحلة إلى أخيه محمد بن دبيس ، وجعل الأمير ضياء الدين مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر المقتول مدبّراً لأموره [1] ، وبذلك انضمّ مهلهل إلى بني سلجوق ، واعتمد عليه السلطان مسعود في مهات الأمور . ففي سنة « ٥٤٠ هـ » سار الأمير بوزابه صاحب خوزستان في جنده الى قاشان مباينا للسلطان مسعود ، ومعه الملك محمد بن السلطان محمود ، ووصل إليهما الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد ، واجتمع بوزابه والأمير عباس صاحب الريّ واتفقا على الخروج عن طاعة مسعود ، واستوليا على كثير من بلاده . وبلغه الخبر وهو ببغداد على عهد الخليفة المقتفي لأمر الله ، فخرج عنها لحربها ، وترك فيها الأمير مهلهلاً والأمير نظراً المسترشدي وجماعةً من غلمان مجاهد الدين بهروز . وقبل رحيله ـ أي رحيل السلطان ـ أشار عليه مهلهل أن يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت ، فعلم عليّ وهرب في جماعة يسيرة الى الأزيز ، المعروفة اليوم بطميرزات غربي النجف كما أعتقد ، وجمع بني أسد وغيرهم ، وسار فيهم الى الحلة فاستولى عليها مستقلاً بعد قتاله أخاه محمداً وهزيمته إياه . واستهان السلطان مسعود بأمره ، فاستفحل ، وضم إلى نفسه جمعاً من مماليكه ومماليك أبيه وأهل بيته وجندهم ، وكثر جمعهم ، فسار اليه مهلهل فيمن كان معه في بغداد من الجند ومنهم الأمير نظر المسترشدي ، فقاتلهم عليّ ودحرهم ، وعادوا منهزمين الى بغداد سلوبا ما كان معهم ، وكان البغادّة يتعصبون

---

(١) الكامل في حوادث سنة (٥٣٠ هـ) وسنة (٥٣٢ هـ) ، وأخبار الدولة السلجوقية لصدر الدين الحسيني (ص ١١٠) .

لعليّ بن دبيس ، فكانوا يصيحون إذا رأوا مهليلاً وبعض أصحابه : « ياعلي كُله » . وكثر ذلك منهم حتى أمتنع مهليل من الركوب ، ومدّ عليّ يده إلى اقطاع الأمراء في الحلة ، وتصرف فيه ، وصار شحنة بغداد ومن فيها على وَجَل منه ، وجمع الخليفة المقتفي جماعة وجعلهم على السُّور لحفظه [1] .

ومن هذا العصر بدأ التنافس بين أسد والجاوانيين حلفائهم ، لأن الجاوانيين رأوا بعد التجارب أن صلاح أمرهم في الانضمام الى الخلافة العباسية ، وترك مخالفتها والخروج عليها ، ولأن بني أسد ورطتهم سياستهم في أن يشاقوا بني العباس ، ويتحدوا مع السلجوقيين عليهم ، وبذلك فقدُوا كلّ أمل في الرجوع الى الحلة ، وهذه عاقبة من يخون بني جنسه ، فهم عرب والخليفة عربيّ ، ولكنّ الطمع يَربِن على العقول .

وفي سنة « ٥٤٧ هـ » توفي السلطان السفاك مسعود ، واستقل الخليفة المهام المقتفي لأمر الله بالعراق ، وتولى السلطنة السلجوقية بايران محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه ، وبقي بنو جاوان الى جانب بني العباس . وكان أتباع السلجوقيين من قواد وأمراء قد رأوا في استقلال الخلافة ضربة قاضية على سلطتهم بالعراق ، وذهاباً لاقطاعاتهم ومنافعهم ، وقطعاً لأعناقهم فيه ، فحرّضوا السلطان السلجوقي على قصد العراق ، وتقدموا أمامه في جيش مختلط من المماليك والتركمان ، يقوده أحد الأمراء واسمه مسعود البلالي ، فخرج اليهم الوزير الكبير عون الدين يحيى بن هبيرة ، فهزمهم . ثم جمع مسعود البلالي جمعاً آخر وقصد الحلة ، فخرج اليه الوزير المذكور ثانية ، ودحر جيشه ، وانتهت بهم الهزيمة إلى لحف جبل حمرين . فأقام مسعود البلالي هناك مدة يستجيش ويستمدّ ، فأمدّه السلطان محمد بالأمير سلارجور ابن الزهير الكردي وكان من كبار الأمراء السلطانيين ، واتفقا وقصدا الحلّة واجتمع لهما عسكر جرّار . ثم غدر مسعود البلالي بسلارجور الكردي ، وأغرقه في الفرات . ثم حدث اختلاف بينه وبين السلطان ، فمضى إلى تكريت ، وأخذ منها الأمير الشاب أرسلان شاه ابن

(١) الكامل في حوادث سنة (٥٤٠ هـ) .

السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه ليجعله سلطاناً بالعراق ، ويعيد أُحتلاله كما يقول أهل عصرنا ، وقصد لحف الجبل ، وانضمّ إليه هناك آلبقُش كون خر أحد أمراء السلاطين ، ومعه عسكر الجبل ، واجتمع إليه سائر التركمان ، وصاروا في جنود تموج بهم الأرض ويستر غبارهم وجه السماء . ووصل خبرهم الى الخليفة الهمام المقتفي لأمر الله ، وكان قد جمع عساكر عظيمة منهم الأكراد الجاوانية جميعهم ، وقائدهم يومئذ ضياء الدين مهلهل بن أبي العسكر الجاواني المقدم ذكره ، فأقطعه المقتفي الحلّة وما حولها ، وخرج المقتفي بنفسه في ذلك الجيش من بغداد ، وعسكر بيراز الروز أي بلد روز الحالية ، والتقى الجيشان عند قرية « بجمزى » ، وتسمّى أيضاً « بكمزى » وبينها وبين بعقوبا فرسخان ، وكان ذلك سنة « ٥٤٩ هـ » ، وحملت ميسرة آلبقُش وفيها مسعود البلالي على ميمنة المقتفي لأمر الله ، وفيهم الأمير مهلهل الكردي ، فهُزم ، ووصلت هزيمته الى بغداد ، وقتل الخازن ابن الفقيه ، ونهبت الخزائن ، وذلك لأن بني عوف من العرب والأمير هندي الكردي الجاواني وهم من عسكر المقتفي غدروا والتحقوا بجيش السلجوقيين ، فحمل الخليفة بنفسه هو وولي عهده يوسف الذي صار بعد ذلك خليفة ولقب المستنجد بالله ، وصاح الخليفة : « يا آل هاشم ، وقيل : يا آل مُضر ، كذب الشيطان وفرّ » ، وقرأ : ﴿ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾ ، وحمل باقي الجيش معه فهزمُوا الجيش السلجوقي ، وظفر الخليفة بهم وغنم جنده جميع ما معهم ، ولا سيما ما كان مع التركمان (١) . لقد ظفر الخليفة في وقعة بجمزى ، وذلك يعني أن الحلّة أصبحت اقطاعاً للأمير مهلهل بن أبي العسكر الجاواني ، وأنّ الجاوانيين رأسوا في الحلّة على بني أسد . أمّا الأمير هندي الجاواني الذي خامر على الخليفة المقتفي ، فهو الذي مدحه ابن المعلّم الشاعر الهُرْثي بقصيدته الداليّة التي يقول في نسيبها :

تتبّهي يا عذبات الرّند ... كم ذا الكرى ؟ هبّ نسيمُ نجد !

(١) أخبار الدولة السلجوقية للحسيني (١٢٩ـ١٣٣) ، وزبدة النصرة (٢١٦ـ٨) من طبعة مصر ، والكامل في حوادث سنة (٥٤٩ هـ) .

مرّتْ على الروض وجاء سحراً ... يسحب بُردي أرجٍ ووَرد
حتى إذا عاقت منه نفحةً ... عاد سَمُوماً والغرامُ يُعدي
واعجبا منيَ أستشفي الصّبا ... وما تزيد النارَ غيرَ وقد
أعلّل القلب ببانٍ رامةٍ ... وما ينوبُ غصُنٌ عن قدِّ
وأسأل الربع ، ومَن لي لو وعى ... رجعَ كلامٍ أو سخا بردٍّ ؟
أأقتضي النوحَ حماماتِ اللّوى ؟ ... هيهاتَ ما عند اللوى ما عندي !
كم بين خالٍ وجوٍ وساهرٍ ... وراقدٍ وكاتمٍ ومُبدي
ما ضرَّ من لم يسمحوا بزورةٍ ... لو سمحتْ طيوفهم بوعد
بانوا فلا دار العقيق بعدهم ... دار ، ولا عهد الحمى بعهد
آهٍ من البعد ! ولو رفقتم ... ما ضرّني تأوّهي للبعد
عشقي لا ما عشقته عذرة ... قبلي وبي يسنُّ لي من بعدي
تعلّة وقوفنا بطلل ... وعلّة تسآلنا لصلد
إن نكب الغيث الحمى وضنّ أن ... ينير في عراصها ويُسدي
سقته عيني ورمته أضلعي ... بوابل وبارق ورعد
طرف يجف المزن وهو واكف ... كأنما جفناه كف (هندي[1])

وفي سنة « ٥٥٢ هـ » حاصر السلطان محمد بن محمود السلجوقي المقدم ذكرُهُ بغداد ، وفيها الخليفة المقتفي لأمر الله ، وقد استنفد كل لخصمه بالجيوش والآلات الحربية ، وكانت الوقيعة من الوقائع الفاصلة في التاريخ ، كانت نتيجتها إنقاذ الدولة العباسية من كابوس السلطنة السلجوقية التي جثم على صدرها زهاء نصف قرن ، واستقلال العراق بعد ذلك الحكم الجائر والوصاية الماسفة . وكان انضمام الأكراد الجاوانيين الى بني العباس من أسباب ظفرهم في هذه الحرب ، فقد جاء في التأريخ أن ضياء الدين مهلهل بن أبي العسكر كان مع المقتفي على

(١) الخريدة المقدم ذكرها (الورقة ١٥٥-٦) .

السلجوقيين وعلى بني عوف الذين غدروا بالخليفة في وقعة بجمزى وعلى بني أسد وحلفائهم ، ومقدمهم يومئذ الأمير علي بن دبيس ومعه من أبناء عمه الأمير حسن المضطرب ، فأسر المقتفي لأمر الله حسناً المذكور وأخاه ماضياً وعدة وافرة من أعيان بني أسد ، وصلب حسناً على دقل سفينة مقابل عسكر السلطان ، إرهاباً لجنده ومن معه .

وذهب الأمير مهلهل الى الحلة للدفاع عنها ومنع جنود السلطان من دخولها ، فوجد بني عوف قد احتلوها [1] . هذا قول أبي الفرج ابن الجوزي . وذكر ابن الأثير في كامله أنه ذهب الى الحلة فأخذها ، ولعل فيه نقصاناً . وسكت التاريخ الأول عما فعل الأمير مهلهل ، فلم يذكر أنه حارب بني عوف ولا أنه رجع الى الخليفة المقتفي ببغداد للدفاع معه ، وأنا أسترجح الأمر الثاني لأنه هو الحال الظاهرة المستنبطة من ذلك السكوت . وأياً كان فلقد خلصت إمارة الحلة للأمير مهلهل الجاواني على حسب ما وعده به الخليفة المقتفي ، وحُلِّيء بنو أسد عن إمارتها ، وطردوا من أكناف أرض الخلافة العباسية ، جزاء لهم بما فعلوا وما ارتكبوا : من تأييد الدولة السلجوقية على دولة بني العباس العربية بالسيف والرأي ، وكان خيراً لهم كما قلت أن يعاضدوا خلافة العرب وهي خلافة جنسهم ، وأضمن من غيرها لمستقبلهم ، ولم يكن الخليفة المقتفي متعصباً على مذهبهم ، ولا مؤذياً لهم في عقيدتهم ، فيؤلبوا عليه ذلك التأليب ، ولكن حب الحكم كما أسلفت يرين على القلوب فلا تميز الخير من الشر . وهكذا دالت دولة بني أسد على يد بني العباس وحلفائهم الأكراد الجاوانيين ، وقد تشفع الخلفاء العباسيون قبل ذلك فكانوا هم والجاوانيون على مذهب واحد .

وفي أيام ولاية الأمير مهلهل بن أبي العسكر الجاواني على الحلة ، توجه حيص بيص الشاعر المقدم ذكر مدحه لأخيه عنتر إلى الحلة لاستخلاص حوالة بها ، وكانت على ضامن الحلة أي ضامن ضرائبها . فسيّر الشاعر غلامه الى الضامن يستأديه الحوالة ، فلم يلتفت الى الغلام ، وشتم أستاذه ، فشكا حيص بيص الى الأمير مهلهل ، فسيّر معه مهلهل بعض مماليك الباب

(١) تاريخ الدولة السلجوقية للحسيني (١٣٤ — ١٤١) ، والمنتظم (١٦٨/١ — ١٧٦) ، وزبدة النصرة (٢٢٦ — ٢٣٣) ، والكامل في حوادث سنة (٥٥١ هـ) .

ليساعده ، فلم يقدم منه الشاعر بذلك ، وكتب إليه رسالة يعاتبه فيها ، وكانت بينهما مودة قديمة ، وقال في رسالته : « وما كنت أظنُّ أن صحبة السنين ومودّتها ، يكون مقدارها في النفوس هذا المقدار ، بل كنت أظن أن الخيس الجحفل ، لو زنّ لي عرضاً لقسام بنصري من آل أبي العسكر حماة غلب الرقاب ، فكيف بعامل سويقة ، وضامن حليلة وحليقة ؟ ويكون جوابي في شكواي أن ينفذ اليه مستخدم يعاتبه ، ويأخذ ما قبله من الحق ، لا والله :

إن الأسود أسود الغاب همتها   يوم الكريهة في المسلوب لا السلبُ

وبالله أقسم وبنبيه وآل بيته ، لئن لم تقم لي حرمة تتحدث بها نساء الحلة في أعراسهن ومناحاتهن ، لا أقام وليّك بحاتك هذه ولو أمسى بالجسر والقناطر ، هبني خسرت حمر النعم أفأخسر تميميّتي ؟ واذلاه واذلاه !! والسلام [1] » .

ولم أقف الى اليوم على تاريخ وفاة الأمير مهلهل مع حفول سيرته بالأمور الجسام في السياسة والحرب ، وهذا مثل من مثل النقصان في تواريخنا ، ولا شك في أنه توفي بعد سنة « ٥٥٣ هـ » ، لأن حصار بغداد كان سنة « ٥٥٢ هـ » . وقد أضفنا اليها سنة على اعتبار أنه حكم فيها بالحلة ، وقصده فيها حيص بيص الشاعر .

ومن الأمراء الجاوانيين الذين نبغوا في ذلك العهد بالحلة ، الأمير أبو الهيج عبد الله بن الحارث بن ورام ، وفيه أيامَ شبابه يقول جمال الدين شرف الكتاب ابن جيا الحلي الكاتب الشاعر وقد توفي هذا الشاعر سنة « ٥٧٩ هـ » . وقد نشرنا هذه القصيدة في ملحق الجزء الأول من تاريخ بغداد الموسوم بالمختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد سنة (١٩٥١ م) ، وقلنا في الحاشية : « أبو الهيج عبد الله هو من الأمراء الوراميين الأكراد المستعربين النازلين في الحلة مع بني أسد ، وهي من الشعر العربيّ الأصيل وإن كانت صناعية الغزل مألوفة المعاني في أكثر بيوتها ، تثبت أن الحلة حافظت على ديباجة الشعر العربيّ إذ ذاك :

(١) الوفيات (٢١٩/١) من طبعة بلاد العجم .

سرى موهناً طيفُ الخيال المؤرّقِ   فهاجَ الهوى من مُغرم القلب شيّقِ
تخطّى إلينا من بعيدٍ وبيننا   مهامه موماةٍ من الأرض سَمْلَقِ
يجوبُ خُدارياً كأنّ نجومَهُ   ذُبالٌ يذكّى في زجاجٍ مُعلَّقِ
أتى مضجعي والركبُ دوني كأنهم   سُكارى تساقَوا من سُلافٍ معتّقِ
تخيّل لي طيفُ الخيالة أنها   ألمّتْ برحلي في الظلام المؤرّقِ
فأرّقني إلمامُها بي، ولم يكن   سوى حُلُمٍ من هائمِ القلب مُوثَقِ
أسيرِ صباباتٍ تعرَّقن لحمَهُ   وأمسكن من أنفاسه بالمخنّقِ
إذا ما شكا العشاق وجداً مبرّحاً   فكلُّ الذي يشكونه بعضُ ما لقي
على أنه لولا الرجاء لأوبةٍ   تُقرّبه من وصل سُعدى لما بقي
نظرتُ ولي إنسانُ عينٍ غزيرةٍ   متى يَمْرِها برحُ الصبابة يَغْرَقِ
إلى علمٍ من دار سُعدى، فشاقني   ومن يَرَ آثار الحبيبة يشتقِ
فظلْتُ كأني واقفاً عند رسمها   طعينٌ بمذروب الشباة مذلّقِ
وقد كنت من قبل التفرّق باكياً   لعلمي بما لاقيتُ بعد التفرقِ
وهل نافعي والبعدُ بيني وبينها   إجالةُ دمعِ المقلة المترقرقِ
وأشعثَ مثل السيف قد مَنَّه السرى   وقطعُ الفيافي مُهرقاً بعد مُهرقِ
من القوم مَعلومٍ يميلُ برأسه   شمائلُ أعجاز النعاس المرنِّقِ
طردتُ الكرى عنه بمدح أخي العلا   أبي الهيج ذي المجد التليد المعرّقِ
حُسام الجيوش عزِّ دولة هاشم   حليف السماح والندى المتدفقِ
فتى مَجدةٍ يَنمي به خيرُ والدٍ   إلى شرفٍ فوق السماء مُحلّقِ
على وجهه نور الهدى وبكفّه   مفاتيح باب المبهم المتغلّقِ
إذا انفرجت أبوابه خلت أنها   تفرّجُ عن وجهٍ من البدر مشرقِ
وإن ضاق أمرٌ بالرجال توجّهتْ   عزائمه فاستوسعت كلَّ ضيقِ

ترى مالَه نهبَ العفاةِ وعِرضَهُ ... يُطاعِنُ عنه بالقنا كلَّ فيلق
جَموعٌ لأشتات المحامد كاسبٌ ... لها أبداً من شمل مالٍ مفرَّق
سما وهو في حدِّ الحداثة جَدُّهُ ... له في مساعي جِدِّه سعيُ مُشفِق
تلوح على أعطافه سِمَةُ العُلا ... كبَرْق الحيا في عارضٍ متألِّق
من النفر الغُرِّ الأُلى عمَّت الورى ... صنائعهم في كل غربٍ ومشرق
إذا فخروا لم يفخروا بأُشابةٍ ... ولا نَسَبٍ في صالح القوم ملصق
هم السابقة العلياء من يجرِ غيرَهم ... الى غايةٍ من حلبة المجد يُسبَق
إذا ما هضاب المجد سُدَّت طلوعها ... ولم يرقها من سائر الناس مرتق
توقَّلَ عبد الله فيها ، ولم يكن ... يزاحمه فيها أمرؤ غيرُ أحمق
صفا لك يا ابن الحارث القيل في الفلا ... مشارب وِردٍ صفوها لم يرنَّق
متى رمتُ في استغراق وصفك حدَّه ... أبى العجز إلا أن يقول لي : أرفق
فلست وإنْ أسهبتُ في القول بالغاً ... مداه بنعتٍ أو بتحبير منطق
ألا إن أثواب المكارم فيكم ... بواقٍ على أجسامكم لم تخرَّق
يُجدِّدُها إيمانُكم ، ويزيدها ... تمنّاكمُ على تجديدها فضلَ رونق
لك الخلق المحمود من غير كلفةٍ ... وما خُلُق الإنسان مثلَ التخلُّق
إذا ما نداك الغَمرُ ناب عن الحيا ... غنينا به عن ساكب الغيث مُغدِق
فما مدحكم مما أُعاب بقوله ... إذا أفسد الأقوالَ بعض التملُّق
ولكن بقول الحق أغريت فيكم ... ومَن يَتَوخَّ الحقَّ بالحق يَنطِق
فإنْ نلتُ ما أمَّلتُه من ولائكم ... ومدحكمُ يا أبن الكرام فأخلِق
وما دون ما أبغي حجاب يصدُّني ... بردٍّ ولا بابٍ عن الخير مغلق
إذا أنا أحرزت المودة منكمُ ... فحسبي بها إذ كنت عين الموفق [1]

(١) الخريدة المقدم ذكرها (الورقة ١١٣ــ٤) ، والمختصر المحتاج اليه من تأريخ بغداد (ج ١/١٥ــ٧) من المستدرك .

وفي هذا العصر ظهر اسم أمير كبير من بني جاوان هو قسيم الدولة — وما أعظمه لقباً! — تغلب الجاواني، قال ابن الفوطيّ: «قرأت في بيت الوزير مؤيد الدين أبي طالب محمد بن أحمد ابن العلقمي، عن هبة الله بن نما، عن السيد النقيب شمس الدين أبي طالب بن أسامة العلويّ: أنه قرأ عليه في دار الأمير قسيم الدولة تغلب الجاواني[1] ...». والذي فهمته من هذا أنّ هبة الله ابن نما الحلّي الراوي المشهور روى عن السيد شمس الدين أبي طالب ابن أسامة شيئاً من المرويّات (وقد ذهب اسمها لسوء تصوير مخطوطة الكتاب) في دار الأمير قسيم الدولة تغلب الجاواني. وأبو طالب ابن أسامة هذا، هو محمد بن عبد الحميد بن عبد الله بن أسامة العلوي من أهل الكوفة، وكان أديباً فاضلاً وله معرفة بالأنساب، قال ابن النجار: قدم بغداد، وروى بها شيئاً من شعره. وذكر أن مولده كان في سنة «٥٥٩ هـ[2]». ولم يذكر وفاته، فهو من أهل القرن السادس للهجرة. ولا شك في أن دار الأمير تغلب كانت في الحلة.

وقد اشتهر بالزهد من الجاوانيين الورامين أبو الحسين ورام بن أبي فراس عيسى بن أبي النجم، قال صاحب الروضات: هو «الأمير الزاهد أبو الحسين ورام بن أبي فراس من أولاد مالك الأشتر النخعي صاحب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ ع ـ [وهو] عالم فقيه، فاضل جليل القدر جدّ السيد رضي الدين علي بن طاووس لأمه. له كتاب تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، حسن إلا أن فيه الغث والسمين»، ونقل من صحيفة الصفاء قول مؤلفها فيه: «ورام بن أبي فراس عيسى بن أبي النجم بن الحسين النخعي الأشتري الحلّي»، ثم قال: «وأبو النجم المذكور ابن حمدان بن خولان بن ابراهيم بن مالك الأشتر ... وكتاب مجموعه المذكور، كتاب في الزهد والنصيحة، لطيف مشهور، ومشتمل على أحاديث جمّة وردت في مراتب الموعظة الحسنة والحكمة عن أهل البيت والمعرفة والعصمة، إلا أنها في الأغلب من المرفوعات والمراسيل، ومن جملة كلمات من ليس عليهم التعويل[3]» أراد أنها من رواة مختلفين، لا من الشيعة حسب.

(١) تلخيص معجم الألقاب (٤/٣٠٥).
(٢) الوافي بالوفيات (٣/٢١٩).
(٣) الروضات (٢/٢٢٨).

وقال ابن الساعي في وفيات سنة « ٦٠٥ هـ » : « أبو الحسن ورام بن أبي فراس الحلّي ، شيخ زاهد متعبد . كان أولا جندياً على طريقة غير سوية ، فهداه الله تعالى الى التوبة والإنابة ، فترك جميع ما كان فيه ، ولزم باب الله عز وجل ، وانعكف على الخير والعبادة وقراءة القرآن المجيد ومداومة الصوم وكثرة الصلاة نافلةً ، فعظم في أعين الناس ، وصار تقصده الأكابر للتبرك . توفي يوم الجمعة ثاني المحرم [من السنة] ، ونُقل الى الكوفة فدفن بمشهد علي عليه السلام [1] » .

وقال منتجب الدين علي بن عبيدالله بن بابويه في فهرست رجاله : « الأمير الزاهد أبو الحسن ورام بن أبي فراس بالحلّة ، من أولاد مالك بن الحارث الأشتر النخعي صاحب أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ، فقيه صالح . شاهدته بالحلّة ، ووافق الخُبرُ الخَبَر . قرأ على شيخنا الإمام سديد الدين محمود الحُمّصي بالحلة وراعاه [2] » . وقال ابن الأثير في حوادث سنة « ٦٠٥ هـ » : في هذه السنة في ثاني المحرم توفي أبو الحسن ورام بن أبي فراس الزاهد بالحلّة السيفية ، وهو منها ، وكان صالحاً [3] » ، ولم يذكر كتابه في كشف الظنون ، بل ذكره مؤلف « المصباح المكنون في الذيل على كشف الظنون » اسماعيل باشا الباباني ، قال : « تنبيه الخواطر ونزهة النواظر [4] » تأليف ورام بن أبي الفراس (كذا) عيسى بن مالك الأشتري الحلي الشيعي (كذا) المتوفى في حدود سنة ٦٠٠ [5] » (كذا) .

وفي الحق أن الأمير ورام أو وراماً ، إن جعلناه عربي الاسم لم يكن شيعياً كما قال اسماعيل باشا ، بل شافعياً على مذهب الأكراد الجاوانيين مع حب شديد لآل البيت بحكم المربى والبيأة والمنشأ ، والذي زاده احتراماً في كتب الشيعة كونه خالَ السادة الطاووسيين الحلّيين كرضي الدين وغيره ، ألا ترى أن من علماء الشيعة من ذكر أن في كتابه الغث والسمين ، وأن

(١) الجامع المختصر (٩/٢٧١ـ٧) .
(٢) بحار الأنوار (٢٥/١٣) ، والروضات (٢/٢٢٨) .
(٣) الكامل في حوادث سنة (٦٠٥ هـ) . (٤) المصباح المكنون (٣٢٤) .
(٥) طبع الكتاب أي تنبيه الخواطر بطهران سنة (١٣٠٣ هـ) باسم مجموعة الشيخ ورام .

فيه أقوالاً لمن ليس عليهم تعويل في مذهب الشيعة الإمامية ؟ ولعل اسماعيل باشا استدل على نسبة التشيع اليه بأن منتجب الدين بن بابويه الإمامي المقدم ذكره قد ذكره في كتابه في الرجال ، وليس في ذلك دليل ، فان منتجب الدين ذكر الفخر الرازي مثلاً وهو من أعلام الشافعية وكبار أئمتهم .

وفي ترجمة ورام الزاهد شيء جديد في تأريخ الأكراد الجاوانيين الوراميين ، هو تركهم نسب « الكردي » ، ورفعهم النسب الى « إبراهيم بن مالك الأشتر » ، والاستعاضة عن الكردي بالمالكي كما جاء في الروضات . وإنما اختاروا لنسبهم الجديد « إبراهيم » ؛ لأنه كان هو وأبوه من شيعة آل أبي طالب ، فارتفعوا بأنسابهم إلى من يودون الاتصال به من أشراف العرب وأعيانهم ، كما فعل غيرهم من الأكراد في الانتساب الى الخليفة عثمان بن عفان ، وآخرون في الانتساب الى خالد بن الوليد ، وآخرون الى بني العباس ، ولم يكن هذا مقصوراً على الأكراد . قال سبط ابن الجوزي في ترجمة الوزير الكبير عون الدين بن هبيرة المقدم ذكره : « وقد نسبه جماعة من العلماء منهم محمد بن الدبيثي في الذيل وأبو بكر [ابن المارستانية] والعماد الأصفهاني فقالوا : هو يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن حسن بن أحمد بن الحسن ابن جهم بن عمرو بن هبيرة ... وهذا النسب استنبطوه بعد وزارته بسنين [2] » .

وقال ابن الفوطي في ترجمة ابراهيم بن ميكائيل الكردي : « فخر الدين أبو محمد ابراهيم ابن ميكائيل بن اسماعيل العثماني شيخ الجبال ، ومن مشايخ الجبال والدربند مما يلي حلوان ودرتنك وباوه ، وله نسب متصل بأمير المؤمنين عثمان بن عفان الأموي . وقدم ولده قطب الدين الى بغداد ، وكتبتُ له نسبه ، وهو الآن بيده [3] » . وقال في ترجمة ابنه : « قطب الدين ميكائيل ابن ابراهيم الأموي شيخ الجبال ، وهو من شيوخ الجبال المجاورة لحلوان ودرتنك ، ولهم جماعة كثيرة ينتسبون اليهم ، وبتلك الجبال والبراري ينتمون في الخرقة إليهم ، ولهم صيت منتشر هناك . قدم بغداد سنة عشر وسبع مئة ، وله نسب الى عثمان بن عفان ، وتردد إلي [4] » .

(١) الروضات (ص ٣٩٢) . (٢) المرآة (٨/٢٥٦) .
(٣) تلخيص معجم الألقاب (٤/٢١٧) . (٤) التلخيص المذكور (٤/٣٢٨) .

وعلى ذلك لانرى غرابة في ترجمة « عماد الدين بن محمد بن أبي فراس حسام الدين الكردي الجاواني الورامي » حين تجد ابن الساعي المؤرخ الكبير المشهور يقول : هو « عماد الدين أبو المظفر محمد بن أبي فراس حسام الدين بن جعفر بن أبي فراس النخعي الحلي الأمير [1] » . مع أن ابن الأثير يقول في ذكر أبيه : « حسام الدين أبو فراس الحلي الكردي الورامي ، وهو ابن أخي الشيخ ورام ، وكان عمه من صالحي المسلمين وخيارهم [2] » .

وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله ، وهو عهد أهل الكفايات وأرباب الملكات ، وجدت الإمارة الجاوانية المتعربة نسباً ومشرباً ومجالاً واسعاً ، ففي سنة « ٦٠٨ هـ » نهب الحجاج بمنى ، وسبب ذلك أن رجلاً باطنياً اسماعيلياً وثب على بعض أقرباء الأمير بمكة قتادة بن ادريس بن مطاعن الحسني ، فضربه بسكين فقتله بمنى ، ظناً منه أنه الأمير قتادة . فلما سمع الأمير قتادة ذلك ، جمع الأشراف والعرب والعبيد وأهل مكة ، وقصدوا الحجاج ، ونزلوا عليهم من الجبل ، ورموهم بالحجارة والنبال . وكان أمير الحاج العراقي ومن معهم من الشرق علاء الدين محمد بن الأمير ياقوت من أمراء الخليفة الناصر لدين الله نائباً عن أبيه ، وهو صبي لا يعرف ما يفعل ؟ فخاف وتحير ، وتمكن قتادة من نهب الحاج ، فنهبوا من كان في الأطراف منهم ، وأقاموا على حالهم الى الليل ، فاضطرب الحجاج ، وباتوا بأسوأ حال من شدة الخوف من القتل والنهب . فقال بعض الناس لأمير الحاج في أن ينتقل بالحجاج إلى منزلة حجاج الشام . فأمر بالرحيل ، فرفعوا أثقالهم على الجمال ، واشتغل الناس بذلك ، فطمع العبيد وغيرهم من أتباع قتادة فيهم ، وتمكنوا من النهب ، والتحق من سلم منهم بحجاج الشام واجتمعوا معهم . ثم رحلوا الى الزاهر ، ومُنعوا من دخول مكة . ثم أذن لهم في ذلك فدخلوها وأدّوا حجتهم وعادوا [3] . وإذ كان الناصر لدين الله يعد هذا الفعل أمتهاناً للإسلام واحتقاراً للدولة العباسية ، أيقن الأمير قتادة أن الناصر لن يتركه بريئاً من التبعة ، فأرسل قتادة ابنه وجماعة من أصحابه الى بغداد ، فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والأكفان عليهم ، فقبلوا عتبة باب النوبي من أبواب دار الخلافة ، واعتذروا الى الخليفة مما

(١) تلخيص معجم الألقاب (٤/١١٨) .
(٢) الكامل في حوادث سنة (٦٢٣ هـ) .

جرى على الحجاج [1] . ومعنى ذلك أنهم إن لم يقبل الخليفة عذرهم ، فهم مستعدون لأن يُقتَلوا بالسيوف التي كانت معهم ، وللتكفين بالأكفان التي عليهم ، وهكذا كانت علامة المجرم التائب المنيب عند إظهار توبته وإنابته أيام الخليفة الناصر .

وللذي جرى على الحاج في سنة « ٦٠٨ هـ » استدعى الخليفة الناصر بالأمير أبي فراس بن جعفر بن أبي فراس الكردي الجاواني ، فجعله نائباً عن أمير الحاج محمد بن ياقوت الصغير ، وأمره بالسفر الى مكة ، لكثرة اعتماده عليه ، وكان معه مال وخلع لقتادة صاحب مكة [2] ، وذلك من أموال الصدقات على أهل الحرمين . ويذكر سبط ابن الجوزي : أنّ النهب وقع على حجاج العراق والشرق في إمارة حسام الدين أبي فراس الجاواني المذكور [3] ، وتابعه على ذلك ناقلاً من تاريخه أبو شامة [4] . مع أنّ ابن الأثير يذكر في حوادث سنة « ٦١٠ هـ » : أنه حج فيها بالناس أبو فراس بن جعفر بن أبي فراس الحلي ، نيابة عن أمير الحاج ابن ياقوت ، ومنع ابن ياقوت من الحج لما جرى للحجاج في ولايته [5] . وابن الأثير أحقّ بالتصديق من السبط ؛ لأن السبط معروف بالمجازفة في أقواله وقلة التثبت فيها ، كما قال مؤرخ الإسلام شمس الدين الذهبي .

وفي أواخر سنة « ٦٢٢ هـ » كان حسام الدين أبو فراس الجاواني هذا أميراً على الحاج ، ولما بلغ بهم ما بين مكة والمدينة ، فارقهم إلى مصر ، قال ابن الأثير : « حكى لي بعض أصدقائه أنه إنما حمله على الهرب ، كثرة الخروج في الطريق وقلة المعونة من الخليفة الناصر . ولما فارق الحاج ، خافوا خوفاً شديداً من العرب ، فأمّن الله خوفهم ، ولم يرعهم داعر في جميع الطريق ، ووصلوا آمنين ، إلا أن كثيراً من الجمال هلك ، أصابها غدّة عظيمة ولم يسلم إلا القليل [6] » . أما مؤلف الحوادث ، فقد ذكر أن مفارقته للحاج كانت هرباً من الوزير مؤيد الدين القمّي وحذراً من قصده إياه ، وأن مفارقته للحاج كانت سنة « ٦٢١ هـ » لا سنة « ٦٢٢ هـ » ، وأنه التجأ إلى

(١) المرجع المذكور في حوادث سنة « ٦٠٨ هـ » .
(٢) مرآة الزمان (٨/٥٦١) من طبعة الهند ، والنجوم الزاهرة (٦/٢٠٦) .
(٣) المرآة (٨/٥٦) . (٤) ذيل الروضتين (٨٨/٩)
(٥) الكامل في حوادث سنة (٦١٠ هـ) ، وراجع تاريخ الخزرجي (الورقة ١٢٢) .
(٦) الكامل في حوادث سنة (٦٢٢ هـ) .

الملك الكامل أبي المعالي محمد بن الملك العادل الأيوبي ، فتلقاه الكامل بالقبول ، وجعله مقدماً على أمرائه بمصر . ولما بلغ حسام الدين قبض الخليفة المستنصر على مؤيد الدين القمي سنة « ٦٢٩ هـ » ، كاتب ديوان الخلافة يستأذن في العود إلى بغداد ، فأجابه الخليفة الى سؤاله ، فعاد . ولما وصل الى بغداد ، حضر عند نصير الدين أحمد بن الناقد نائب الوزارة ، فخلع عليه خلعة سنية ، وأعيد الى زعامته ، ومضى الى داره بسوق العجم . ثم استدعي بعد أيام الى دار الوزارة ، فخلع عليه ، وأعطي سيفاً محلى بالذهب ، وأركب فرساً ، وأعطي سبعة أحمال أعلاماً وطبول حرب ، وضمّ إليه جماعة من العسكر ، وأقطع « دقوقا » [1] المعروفة اليوم بطاووق .

وكان قد تولّى شحنكية البلاط الواسطيّة والبصريّة مرتين في أيام الناصر وأيام المستنصر . والشحنكية هي الحاكمية العسكرية . وحج أبو فراس بالناس أميراً ثلاث عشرة حجة ، وكان موصوفاً بالشجاعة ، ولم يزل منذ كان شاباً أميراً مقدماً ، وزعيماً محترماً . ولما توفي الأمير جمال الدين قشتمر المملوك الناصري ، وكان ذلك سنة « ٦٣٧ » هـ ، سأل أن يكون عوضه في التقدم على جنود الدولة العباسية أي قائداً عاماً ، فلم يجب الى ذلك ، فامتنع من الركوب في الأعياد مع سائر الأمراء ، فكان موكبه يخرج في العيد وفيه ابنه عماد الدين أبو المظفر محمد الجاواني ، نيابة عنه ، ولم يضجر المستنصر من فعله هذا حفظاً لقلبه ورعاية لمقامه . وكان في كبار الأمراء الذين دعوا الى دار الخلافة ، لترتيب الأمور وتدبيرها بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله ، ولم يزل على ذلك الى أن توفي سنة « ٦٤١ هـ » [2] .

وابنه عماد الدين أبو المظفر محمد قال فيه ابن الساعي : « عماد الدين أبو المظفر محمد بن أبي فراس حسام الدين بن جعفر بن أبي فراس النخعي الخلي الأمير ، من بيت الإمارة والولاية ، وفي شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وستّ مئة ألحق عماد الدين محمد بن أبي فراس بالأمراء ، ورتب شحنة بالحلة السيفية . ثم ظهرت منه أمور أوجبت عزله ـ يعني في عهد الخليفة المستعصم ـ فعزل سنة ثلاث وأربعين وستّ مئة ، ورتب عوضه الأمير قطب الدين سنجر البكلكي ،

(١) الحوادث (ص ٤٣/١٨٩) . (٢) الحوادث (ص ١٦٢ ص ١٨٩ ـ ١٩٠) .

وذلك في شهر رمضان من السنة . ثم رتب شحنة الكوفة عوض الأمير ناصر الدين آقوش الشامي ، ثم عزل وذلك لمباقرته العقار وإهماله الأمور ، واستشهد في الواقعة سنة ست وخمسين وست مئة »[1] يعني أنه قُتل في وقعة بغداد بين العباسيين وهولاكو .

وهكذا انقطعت إمارة بني جاوان بانقطاع الخلافة العباسية ، ومضى آخر أمير منهم شهيداً مع شهداء واقعة بغداد التي هي من الحروب الفاصلة أيضاً ، وبداية عهد مشؤوم على العرب . ولم يقع إلي فيما قرأت من تواريخ اسم أمير لبني جاوان ظهر بعد ذلك الزمان ، والظاهر أنهم استعربوا استعراباً تاماً ، واندمجوا في عرب الفرات الأوسط . ولكن محلتهم بقيت بالحلة منسوبةً إلى الأكراد الى اليوم ، كما ذكرت من قبل ، وخفي اسم جاوان من ميدان التاريخ وان لم تخف صورته ، فجاوان ميرخان رئيس الكرد الهماوند ذكره الميجرسون في كتابه « إلى ما بين النهرين وكردستان »[2] المطبوع سنة ١٩١٢ م .

أما شهرة الجاوانيين في العلم والتأليف ، فقد تمثلت في أبي الحسين ورام بن أبي فراس المقدم ذكره مؤلف « تنبيه الخواطر ونزهة النواظر » في المواعظ والرقائق ، وقد أسلفنا الإشارة اليه ، وفي أبي سعيد محمد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن حمدان الجاواني الحلي الشافعي الفقيه ، وكان يكنى بأبي عبيد الله أيضاً ، ولد سنة « ٤٦٨ هـ » . تفقه ببغداد على حجة الاسلام الغزالي وأبي بكر محمد بن أحمد الشاشي وأبي الحسن علي الهراسي المعروف بالكيا ، وكانوا ثلاثتهم مدرسين بالمدرسة النظامية في أزمان مختلفة ، وسمع الحديث وغيره من أبي عبد الله الحميدي الأندلسي وأبي سعيد عبد الواحد بن الأستاذ أبي القاسم القشيري وأبي بكر الشامي القاضي الشافعي ، وقرأ المقامات على مؤلفها أبي محمد الحريري ، وبرع في الفقه وتميّز ، وألف شرحاً للمقامات المذكورة وكتاب « عيون الشعر » والفرق بين الراء والنين ، وبحث بكتاب « إلجام العوام » للغزالي . وقد ذكره حاجي خليفة أول شراح المقامات ،

---

(١) تلخيص معجم الألقاب (٤/١١٨ ـ ٩) .

(٢) To Mesopotamia and Kurdistan . P. 179 . by E. B. Soane. London 1919

وقال : « وقد اعتنى بالمقامات الأدباء ، فشرحها أبو سعيد محمد بن علي بن عبد الله ، وقرأها على مؤلفها الحريري » . وقال في الكلام على كتابه عيون الشعر : « عيون الشعر لأبي سعيد محمد ابن علي الجاواني » ، وقال في ذكر كتابه الثالث : « الفرق بين الراء والغين لأبي سعيد محمد بن علي الجاواني » . وكانت وفاته سنة « ٥٦١ هـ » . ومن شعره :

سلام على عهد الهوى المتقادم ... وأيامنا اللائي بجرعاء جاسم
ودار ألفنا الوجد فيها وتمسكن ... نعمنا به مع كل حوراء ناعم
مرابع أنس في الهوى ومنازل ... لهو الصِّبا والوصل راسي الدعائم (١)

مصطفى جواد

(١) قال تاج الدين السبكي : « محمد بن علي بن عبد الله أبو عبد الله العراقي البغدادي ، من تلامذة الغزالي والشاشي والكيا الهراسي . أنبأه المحدث أبو الفوارس الحسن بن عبد الله بن شافع الدمشقي بإربل ، وسمع منه . ذكر شيخنا الذهبي أنه توفي بعد الأربعين وخمسمئة ، ولا أدري هل هو هذا أو غيره والله أعلم » . (طبقات الشافعية الكبرى (٤/٨٨) ، وكشف الظنون (العمود ١١٨٧ ، ١٢٥٥ ، ١٧٨٨) طبعة وكالة المعارف بتركية سنة ١٩٤٢ م) .